إعمار العقل

تأليف الدكتور
يحيى أحمد المرهبي

تقديم الدكتور
الخضر سالم بن حليس

إعمار العقل

تأليف

الدكتور: يحيى أحمد المرهبي

تقديم

الدكتور: الخضر سالم بن حليس

مراجعة وتنسيق

الدكتور: بكيل علي المرّاني

١٤٤٥هـ-٢٠٢٤م

بسم الله الرحمن الرحيم

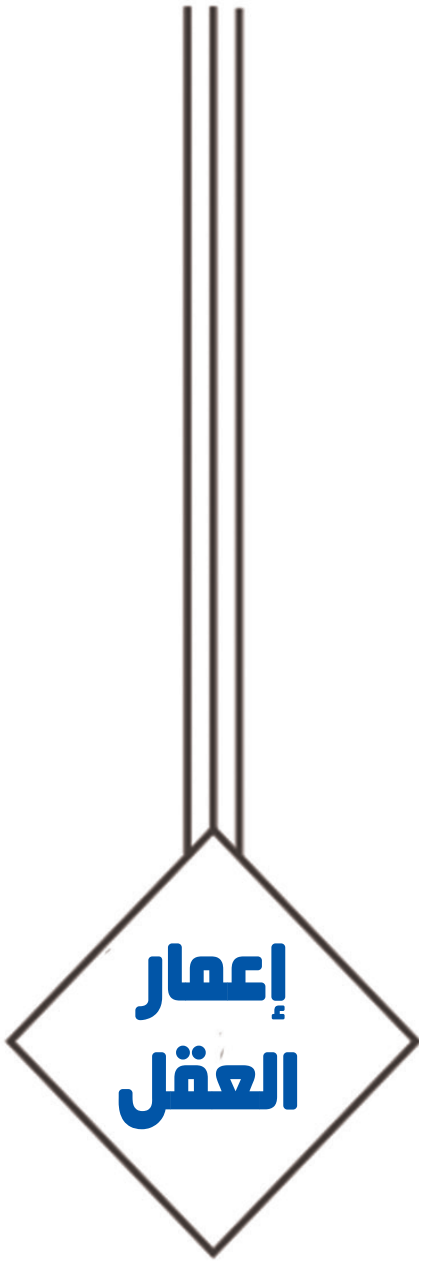
إعمار
العقل

إعمارُ العقل

د. يحيى أحمد المرهبي

المحتويات

تقـــديم ٧
المـــقـــدمـــــة ١٤
العقل ... الماهية والأهمية والمكانة..... ٢٤
العقـــــل والنقـــــل.. الصريح لا يخالف الصحيح ٤٤
التقليد.. آفة العقل..... ٥٤
وتنكر للنعمة الربانية ٥٤
الحوار ... ميدان توظيف إمكانيات العقل وترشيدها..... ٨٧
العقل والقلب... من يقود من؟ ١٠٠
العقل والنفس.. نفسٌ مُحرِّكةٌ وعقلٌ ضابطٌ ١١٥

تقـــديم

الحمد لله الذي أنزل كلمته الأخيرة للبشرية في كوكب الأرض ممثلةً بهذا القرآن، خاتمة الكتب السماوية، هدايةً للإنسانية التائهة في تضاريس الأرض، مقدمًا لها خلاصاتٍ سميكة مركزة، ممثلةً بقائمة السنن الإلهية الهادية المُعبِّرة عن الحضور الإلهي في الكون، وعن القانون الذي يحكم حركة متغيراته، وجعله هاديًا للمسلك القويم، والطريق المستقيم، دقيقًا محكمًا غير ذي عوج، وبلغ به من الكمال الأوج، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على محمد صلى الله عليه وسلم.

أما بعد:

فالكلمة الأولى في القرآن الكريم الذي يعد الكلمة الإلهية الأخيرة للبشرية في كوكب الأرض هي (اقرأ)، وهي تحمل مدلول التحول إلى المجتمع المعرفي، والصبغة العلمية الجديدة للعقل المسلم.

إن (اقرأ) يمثل الضربة الأولى لإيقاظ العقل المرهق بالنزاعات الجاهلية، الضربة الأولى لنفض أقزام الأفكار التي حجّمت كفاءة العقل، وقضت على قدراته العملاقة.

لقد كان الفعل (اقرأ) شديد الحساسية لنوعية التغيير المطلوب في

الجزيرة العربية، فكان له الدور الريادي في تغيير الخارطة الفكرية للقبائل العربية وصناعة وعيها القادم.

تلك (الخمس الآيات) من مفتتح سورة العلق شكّلت القوة الناعمة للقضاء على كتل الجاهلية في جميع مساراتها، وسعت لتطوير العقل المنتج للفكر المثمر، ونفضت عنه أتربة الجهل، ومثّلت له نقلةً نوعيةً من مرحلة الطفولة الفكرية إلى مرحلة الرشد واشعال فتيلة (التشوق المعرفي) بتعبير (عماد الدين خليل) التي دفعته للبحث والتساؤل.

كانت الكلمة الأولى من فصيلة الأفعال وما تصنعه الأفعال في اللغة من حركة ودوران وتحول زمني هو بالضبط ما توحي به طبيعة الحال، فما النقطة الأولى في تشييد البناء الحضاري إلا فعلٌ صلبٌ صارمٌ دؤوبٌ لا يقبل الركود والاستقرار الذي توحي به الأسماء، وتلك فلسفة الصعود الحضاري المرتقب، (فعل) دؤوب لا يقبل التوقف، و(أمر) صارم نشط ترسله قيادة ذكية.

والعقل المستهدف بالقراءة لم يأتِ في سياقات القرآن الكريم عند الكشف الفهرسي لمفرداته إلا فعلا بمواضعه التسعة والأربعين، ليشير إلى أن العقل: فعلٌ إنسانيٌّ نسبيٌّ متغيرٌ وقيمته الفعلية بإنتاجه وأفكاره وحركته الشبيهة بالأفعال، ولم يغشَ صيغ الاسم مطلقا لتبتعد فكرة تصور العقل قطعةً خاملةً يمتلكها الإنسان كما يمتلك سبيكة مدخرةٍ من الذهب

لوقت الاحتياج وهو مالم يدركه الفلاسفة.

إن الفعل (اقرأ) يمثل تأسيسًا استراتيجيا للعقل القادم، ورؤية استشرافية بعيدة لشكل الأمة المرتقب، ومركزية شهودها الحضاري المنشود.

إن الخلاصة الموجزة التي يقدمها مؤشر (اقرأ) تقول: «الأمة التي تتفوق في المعرفة تتفوق في القوة» .بحسب معادلة ألفن توفللر في كتابه (تحول القوة) (*power shift*).

ويشير المفكر المغاربي (أبو زيد الإدريسي) إلى ما يكمن وراء الابتداء بفعل (القراءة) مقدمًا على باقي الأفعال التي كانت الأمة بأمس حاجتها بداية عهدها الجديد فتساءل قائلا: لماذا كان (اقرأ) أول فعل نزل للبشرية.؟

كانت الجزيرة العربية أنذاك تغرق في الشرك فلعلها أحوج إلى أن يكون أول ما نزل هو (وحّد)، وكانت تغرق أنذاك في الكفر ولعلها أحوج أن يكون أول ما نزل إلى (آمن)، وكانت تعيش ظلما اجتماعيا كبيرا فلعلها أحوج إلى كلمة (اعدل)، وكان في قريش من عتاة الملأ المكي وصناديده ما يمثل الطاغوت ليصد الناس عن دين الله فعلها أحوج إلى كلمة (جاهد)، وكانت الأمة غافلة عن الحق فلعلها أحوج ما تحتاج إليه هو (ادع).

ولكن لم تنزل أول ما نزل لا (آمن) على أمةٍ كافرةٍ، ولا (وحد) على أمةٍ مشركةٍ ولا (صدق) على أمةٍ مكذبةٍ، ولا (اعدل) على أمةٍ ظالمةٍ، ولا (ادعُ) على أمةٍ غافلةٍ، ولا (جاهد) على أمةٍ مكابرةٍ، ولا (أصلح) على أمةٍ مفسدةٍ، بل نزلت (اقرأ) وهذا ما ينبغي التركيز على مركزيته في التصور القرآني:

لقد نزلت (اقرأ) على أمةٍ أميةٍ لم تكن قط تحتاج إلى (اقرأ)، وإنما إلى كثيرٍ من أفعال الأمر الحضارية الكبرى ذات الأولوية والمركزية العظمى، ولكن تقدم فعل الأمر (اقرأ) عليها جميعا يحتاج إلى وقفةٍ وإلى تفسيرٍ.

والأقرب عندي إلى التفسير الصحيح هو أن كل هذه الأفعال لابد من تأسيسها على فعل (اقرأ) بوصفه فعل المعرفة السليمة.

ذلك أن (الإيمان) بلا اقرأ سيصبح (خرافة)، وأن (الدعوة) بلا اقرأ ستصبح (تنفيرا)، وأن (العبادة) بلا اقرأ ستصبح (بدعة)، وأن (الجهاد) بلا اقرأ سيصبح (إرهابا).

لقد تم تأسيس كل هذه الأفعال الحضارية والإنسانية والإيمانية الموجودة في الكتاب نفسه بعد ذلك والتي مورست بشكل رائع خلال القرون الخمسة الأولى على فعل (اقرأ) لكي تستنير بهذا الفعل وتكون على هدى من الله». ا هـ .

إن دلالة اسم الله المصاحب لفعل القراءة (الأكرم) ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ [العلق: ٣] مع مناسبة (الأعلم) لسياق العلم والتحصيل، تشير إلى كرم الله الفياض، وعطائه المنهمر على الأمم القارئة، وغدق التحصيل المعرفي وينابيعه الثرة، ويرصد أستاذ التناسب المعنوي في الألفاظ القرآنية (برهان الدين البقاعي) تلك الملاحظة الدقيقة في مدونته التفسيرية الراقية (نظم الدرر) فيقول: «وأشار إلى أن من ذلك أنه يفيض على أمته الأمية من العلم والحظ ما لم يفضه على أمة قبلها على قصر أعمارهم، فقال مشيرا إلى العلم والتعليم، مشعرا بوصفه سبحانه بالمنح بالعلم إلى ترتيب الحكم بالأكرمية على هذا الوصف الناقل للإنسان من الحال العقلي السافل إلى هذا الحال العالي الكامل.» 22/ 159.

وللمفكر السوري الشركسي (جودت سعيد) كتاب فيه تحليل بديع بعنوان (اقرأ وربك الأكرم) يقول: «إن النص يدل على الأمر بالقراءة، ويعقب الأمر بأن الرب أكرم، فصار هنا اجتماع بين القراءة وكرم الرب، أي أن القراءة وكرم الرب اقترنا في مكان واحد، وحين ننظر إلى العالم جغرافياً - أي مكانياً - سنرى هذا الاقتران متلازماً، أي أن الذين ينالون كرم الرب وغناه هم القراء أو أكثر الناس قراءة في العالم».

إن تلك التراكمية الضخمة التي دونتها الأمة من العلوم والمعارف تدل على مدى الاستجابة الفعلية للأمر الذي طولبت بتنفيذه ابتداء،

وكان القسم بمخرجات القلم ونواتجه ﴿وَالقَلَمِ وَمَا يَسطُرُونَ﴾ [القلم: ١] قسما بالأرشيف، قسما بالتراكمية المعرفية والإنتاج الثرّ كما فهم منه المفكر المغاربي أبو زيد الإدريسي، وكان المستشرق الفرنسي المنصف (جوستاف لوبون، ت:1931م) صاحب كتاب «حضارة العرب» الذي يعد من أمهات الكتب التي صدرت في العصر الحديث في أوروبا لإنصاف الحضارة العربية والإسلامية يثبت ذلك بالاستقراء التاريخي المسحي فيقول: «إن حضارة العرب والمسلمين قد أدخلت الأمم الأوروبية الوحشية في عالم الإنسانية، وإن جامعات الغرب لم تعرف لها موردا علميا سوى مؤلفات العرب؛ فهم الذين مدَّنوا أوروبا مادةً وعقلًا وأخلاقًا، والتاريخ لا يعرف أمة أنتجت ما أنتجوا». (حضارة العرب، ص276).

ونلحظ عند فحص قوله تعالى: ﴿ائتوني بِكِتابٍ مِن قَبلِ هذا أَو أَثارَةٍ مِن عِلمٍ﴾ [الأحقاف: ٤] الإشارة الواضحة إلى البحث في تراث البشرية من خلال القراءة الشاملة العميقة التي تجعل الإنسان عالميًّا.

إن مركزية الأمة المشار إليه في قوله تعالى: ﴿وَكَذلِكَ جَعَلناكُم أُمَّةً وَسَطًا لِتَكونوا شُهَداءَ عَلَى النّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣] يجعل من عملية الشهود الحضاري الذي اختصنا الله به يقضي أن نحقق عملية القراءة المسحية الدقيقة والبحث العلمي المكثف لكافة الأمم من حولنا كي نتمكن من القيام بهذه الشهادة على الوجه الصحيح، وللأسف فقد صرنا

موضوع دراسةٍ لغيرنا، ومنطقة استهدافٍ بحثيٍّ.

إن (اقرأ) سرها في عكسها، والارتقاء المأمول لن يبدأ إلا من هذا الطريق الأوحد، ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ [المدثر: 37]

كان فضيلة الدكتور (يحيى المرهبي) أطلعني على كتابه (إعمار العقل)، وهي ورقاتٌ واعيةٌ تسهم في تقديم كميةٍ نوعيةٍ في مضمار الوعي الإنساني، وقيادة العقل الذي جعله الإسلام مناط التكليف.

وهي جرعة وعيٍ ثمينةٍ يقدمها الدكتور بقلمه البصير للجيل الإسلامي في هذا الوقت الذي تختلط فيها كثيرٌ من الأوراق مع توسع منصات الاتصال وكثرة التدوين في جميع الاتجاهات.

أتمنى من فضيلة الدكتور تكثيف مثل هذه الجرعات الواعية، وأتمنى من أجيالنا التبصر في هذه الموضوعات والإقبال على التعلم الواعي الذي يبصرها بمنهاج ربها ويبصرها طريقها المستقيم.

سدد الله خُطى الجميع.

د. الخضر سالم بن حليس اليافعي

24/ جمادى الأول 1445هـ

8/ 12/ 2023م

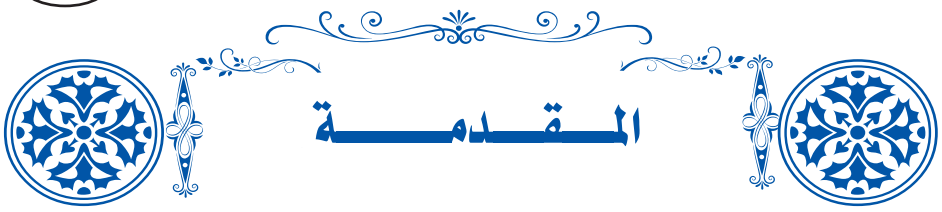

المقدمة

قالوا قديماً: (إن نصف عالمٍ أضرّ على الأمة من جاهلٍ)، وهذا القول من الحكم الرائعة؛ لأن الجاهل يملك بعض الأخلاقيات، مثل التواضع وحب المعرفة والقدرة على الاستماع دون مقاطعة. أما نصف العالم، فإن لديه قدرةً على تكرار الألفاظ، وطرح الفروض المبتذلة والدارجة، وعنده حظٌّ من الغرور والتعالم؛ ولذا فإنه يسدل حجبًا سميكةً على عقله، فلا يتقبل الأفكار الجديدة، ولا يملك من الحماسة ما يكفي لتطوير مفهوماته وطروحاته.

لقد تكشف لنا في تاريخ الإنسان أنّ عمره لا يقاس بالسنوات فقط، فهناك عمرٌ للجسد يمكن قياسه والحديث عنه بحساب السنوات، لكنّ هناك عمرًا عقليًّا أيضا يُعبِّر عن مدى فهم الإنسان للحياة والأحياء، وعن مدى إدراكه لمسؤولياته في هذه الحياة، كما أن هناك عمرًا نفسيًّا يعبر عن مدى النضج الانفعالي والأخلاقي لدى الإنسان، وكان حكيم اليونان الأكبر (سقراط) يقول: «إذا أردت أن تحصل على رجلٍ ناضجٍ، فإن عليك أن تنتظر 50 سنة»، وهو قولٌ رمزيٌّ المراد منه الإشارة إلى أن الحصول على النضج الذي نريده يحتاج إلى وقت، لكن عن طريق تنمية العقل، وتوسيع قاعدة الفهم، يستطيع

ابـن الأربعـين أن يبلـغ مـن كـمال العقـل مـا لا يبلغـه ابـن السـبعين، او ابـن الثمانـين الـذي لا يـولي اهتمامًـا لتنميـة عقلـه ونفسـه.

إن العقـل الـذي وهبـه الله ـ جـل وعـلا ـ لنـا يتمتـع بقـدراتٍ هائلـةٍ، لكنـه يظـل في النهايـة محـدوداً، وأكثـر الأفـكار التـي نمتلكهـا هـي وليـدة التجربـة وثمـرة المعانـاة، أي هـي خـبرةٌ حياتيـةٌ متولـدةٌ مـن اشـتباك منظومـات المعـارف والرمـوز والمبـادئ إلى جانـب ألاعيـب الهـوى وأنـماط السـلطة وأشـكال تحقيـق المصلحـة والاهتـمام بالـذات... ولـذا، يجـب ألا نعدّهـا دائـماً نهائيـةً، فصـدق الأفـكار يظـل مرتهنًـا لمـا تسـفر عنـه نتائـج إنزالهـا إلى الميـدان العمـلي الـذي كثـيراً مـا يفقدهـا تماسـكها ويعيـد إنتاجهـا مـن جديـد عـلى وجـه الإثـراء والتوسـيع، أو عـلى وجـه الانتهـاك والتأويـل.

والعقـل البـشري يميـل دائـمًا إلى تكويـن عـاداتٍ ورسـم أطـرٍ لعملـه، وهـي مـع مـرور الوقـت، تشـكل نوعـاً مـن البرمجـة لـه، والبيئـة - بـكل أنواعهـا - هـي التـي توفـر مـادة تلـك البرمجـة، وكلـما كانـت ثقافـة الإنسـان ضحلـةَ، وكانـت مصـادر معرفتـه محـدودةَ، ضاقـت مسـاحة تصوراتـه، وأصبـح شـديد المحليـة في نماذجـه ورؤاه، عاجـزاً عـن تجـاوز المعطيـات الخاطئـة التـي تشرّبهـا مـن مجتمعـه، والقـراءة الواسـعة والاطـلاع المتنـوع عامـلان يعظّـمان الوعـي لديـه من خـلال المقارنـة وامتداد مسـاحات الرؤيـة، وقـد كان علـماء السـلف لا يثقـون بعلـم العـالم الـذي لم يرحـل، ولم

يغـبِّر قدميـه في طلـب العلـم، إدراكاً منهـم لمخاطـر البرمجـة الثقافيـة القائمـة عـلى معطيـاتٍ محليـةٍ محـدودةٍ.

لقـد أبـدع العقـل البـشري حلـولاً كثـيرةً لمشـكلات النـاس، وأسـهم في توفـير الراحـة لهـم، وفي تخليصهـم مـن الكثـير مـن أشـكال العنـاء، وهـذا موضـع تقديـر منـا جميعـاً، ولكـن علينـا أن نقـول: إن إبداعـات العقـل أوجـدت مشـكلاتٍ كثـيرةً، مثـل تلـوث البيئـة ومخاطـر الطاقـة النوويـة وسـيطرة الآلـة عـلى حيـاة الإنسـان وفشـوّ أمـراض الحضـارة... وعقولنـا غـير قـادرة عـلى إبـداع الحلـول للمشـكلات التـي أوجدتهـا؛ إنهـا تكشـف دائـماً عـن مسـاحاتٍ فاصلـةٍ بـين وجـود المشـكلات والقـدرة عـلى حلّهـا؛ ومـا ذلـك إلا لأن منتجـات العقـول تدخـل في تعقيـداتٍ وملابسـاتٍ يعجـز العقـل عـن فـك رموزهـا والتحكـم بهـا، ومـاذا يمكـن للعقـل أن يفعـل لشـخصٍ أدمـن الجلـوس إلى (التلفـاز) واستسـلم لرغباتـه فأضـاع الكثير من واجباتـه؟ وهـذا يعنـي أن الاعتـماد عـلى العقـل في تصحيـح مسـار البشريـة بعيـداً عـن القيـم والمبـادئ التـي يوفرهـا الوحـي مجـافٍ للصـواب، وباعـثٌ عـلى خيبـة الأمـل والخـذلان.

إن العقـل ـ كـما يؤكـد عـلى ذلـك الدكتـور (عبـد الكريـم بـكار) لا يسـتطيع مـن غـير إرشـادٍ مـن خارجـه الوصـول إلى معرفـة العلـل الأوليـة ولا الغايـات النهائيـة للوجـود، وهـو لا يملـك محـكّاتٍ جيـدةً لتحديـد

المهم من غير المهم، ولا يستطيع الفرز بين النافع والضار والخير والشر وتحديد ما هو نافع حالاً ضارٌّ مآلاً في كثير من الأحيان... وقد شبَّه بعض علمائنا القدامى العقل بوصفه آلة الإدراك بالعين بوصفها آلة الإبصار، وكما أن العين -مهما كانت سليمة وجيدة- لا ترى الأشياء إلا إذا غمرها النور، فإن العقل لا يرى الأشياء إلا إذا غمرتها المعرفة، ولهذا فرؤية المشكلات تحتاج إلى معرفة، ولا مشكلاتٍ بدون معرفةٍ، كما أن لا حلول لها أيضاً من غير علمٍ، فالأشياء لا تُرى إلا إذا وجدت العين ووجد النور، والأمور لا تُدرك على النحو المطلوب إلا إذا وُجد العقل ووُجد العلم، والمعرفة دائماً هي خبز الدماغ الذي يقتات عليه، ومن غير ذلك الخبز تنهار عمليات الدماغ، وتنحط إلى المستوى الأدنى، وحين نفكر في مسألةٍ دينيةٍ محضةٍ فإن المعرفة المطلوبة آنذاك تكون معرفةَ إيمانيةَ شرعيةَ، وحين نفكر في مسألةٍ دنيويةٍ فإننا نحتاج -إضافةَ إلى ذلك- إلى معرفةٍ فنيةٍ مهنيةٍ متخصصةٍ، وهذه الرؤيا للعقل التي تمت بلورتها قبل ما يزيد على عشرة قرون هي آخر ما توصل إليه العقل والعلم في العصر الحديث، حيث يجري اليوم تشبيه العقل البشري بالعقل الإلكتروني أو الحاسب الآلي الذي قال فيه أحدهم: إنه في آنٍ واحدٍ أذكى وأغبى آلةٍ اخترعها الإنسان، وكما أن الحاسب الآلي لا يعمل من غير برامج نحمّلها فيه، فإن العقل البشري لا يعمل من غير معرفةٍ جيدةٍ نزوده بها.

والمتأمل يجد أنه بعد تآكل الحضارة الإسلامية نشأت الحضارة الأوروبية على أعقابها، وقد قامت على ضلعين فاعلين قويين؛ إعمال العقل، والعناية بالجسد، وغاب ضلع العناية بالروح، فأتت حضارةَ ماديةَ تسعى للمنفعة بدرجةٍ عاليةٍ جداً، إلا أنها تعتمد العقل والتخطيط العلمي والاكتشاف والاختراع... وهذا حقّق لها تفوقاً على حضاراتٍ أخرى توقف لديها العقل والروح، حتى إنّ الجسد لم تعد له متعته الحقيقية كبقية الأمم، وتظلُّ وظيفة العقل البشري - على ما يتمتع به من طاقاتٍ هائلةٍ -عند بحث القضايا الكبرى أشبه بوظيفة (المدير التنفيذي) الذي يجهز كل أدوات الرحلة ووسائلها، لكنه لا يحدد أهدافها ووجهتها؛ فذاك من مهام (القائد) المتجسد هنا في المنهج الرباني المعصوم، وممن انتهى إلى هذه النتيجة (أينشتاين) وهو من أكبر عباقرة القرن العشرين عندما قال: (إن حضارتنا تملك معداتٍ كاملةً، لكن الأهداف الكبرى غامضة).

وقد وقع الخلل لدينا في طبيعة الموقف من العقل من قبل طائفتين كبيرتين: طائفةٌ وثقت بالعقل وثوقًا مطلقًا، فحمّلته مسؤولياتٍ لا يستطيع القيام بها، ووصل الوثوق إلى درجة الإعراض عن هدي الشريعة الغرّاء في بعض الأحيان، وكانت النتيجة هي استناد العقل إلى معارف واجتهاداتٍ وخبراتٍ بشريةٍ متراكمةٍ، وإلى العادات والتقاليد

والمألوفات السائدة، ولا يمكن لهذه وتلك أن تؤمَّن للعقل حاجاته الأساسية من المبادئ الكبرى والمعارف الصُّلبة والحكمة البالغة والرؤى الشاملة.

أما الطائفة الثانية فإنها استهانت بدور العقل، وبَخَسَتْه حقه، حيث ظنت أنها من خلال معرفتها بالمنهج الرباني الأقوم - تستطيع فهم الواقع الموضوعي وتطويره والاستجابة لمتطلباته وابتلاءاته، وهي لا تدرك - في غالب الظن - الفارق الجوهري بين المنهج الرباني وفقه الحركة به، وهو فقهٌ يعتمد أساساً على تشغيل العقل بطريقةٍ جيدةٍ واعيةٍ، وعلى الاطلاع على القوى الأساسية التي تشكل الواقع وتدفع به في اتجاهٍ دون اتجاهٍ، وهذه الطائفة ربما كانت لا تدرك أن المبادئ والأحكام التي تشكل رؤيتنا الشرعية والحضارية للحياة لا تعمل في فراغٍ، بل تحتاج إلى بيئةٍ وشروطٍ موضوعيةٍ محددةٍ، وتأمين تلك البيئة وهذه الشروط من مهامنا نحن، وليست من مهام المنهج الرباني، وهكذا فقد ظُلم العقل مرتين، مرةً من قِبَل المشعوذين والمخرِّفين الذين ألغوا دوره، ومرةً من قِبَل الذين حُرموا نعمة الهداية بأنوار الوحي، فألَّهوا العقل، وطلبوا منه أموراً ليس من شأنه الاشتغال بها.

إنّ من أهم سمات الرجل العقلاني أنه لا يستمسك بآراءٍ وأفكارٍ ليس لديه ما يكفي من البراهين عليها، والتجديد للبعد العقلي يتم

بالتخلص من طرق التفكير الخاطئة، وباكتشاف الإمكانات والآفاق التي تزيد في كفاءة تصوراتنا، وتحسّن مستوى محاكمتنا العقلية، إنّها تلك العقلية التي تأخذ من الماضي العبرة، ولكن لا تجعله الوجهة، وترى أحلام الغد دون أن تنفصل عن الواقع، حتى تقدير الجمال مرتبطٌ إلى حدٍّ بعيدٍ بمستوى النضج العقلي والنفسي الذي يحرزه الفرد، وإن الإنسان الناضج يميل إلى جمال النفس، وحلاوة الروح، أكثر من ميله إلى جمال الجسد، وحلاوة الحس.

لقد أصبح العقل ـ في واقعنا الحالي ـ أسيراً لمقولاته، مكبّلاً بأغلالٍ صنعها بيديه، وباتت تتحكم بعمله، وسيكون الأمر مختلفاً لو كان أمام العقل -عند بدايات عمله- مخزونٌ معرفيٌّ جيدٌ، حينئذٍ سيدرك أنه يتّبع خياراتٍ، ولا يخضع لحتمياتٍ، ولهذا فإنه يكون عقلاً مرناً متجدّداً مستوعباً للجديد دون أن يفقد صلته بالقديم، هذا كله يعني أن علينا أن نستمر في أمرين جوهريين:

الأول: هو التزوّد من العلم، فنحن لا نعرف إلا القليل، بل أقل القليل، وما نجهله أكثر بكثير مما نعرفه، وبما أن المعارف تتضاعف كل عقد أو عقدين، فهذا يعني أن جهلنا متجدد.

الأمر الثاني: هو التحرّر العقلي الدائم. إن علينا أن نختبر مقولاتنا وطرائق تفكيرنا، ونحاول مراجعتها وتعديلها بما يتواكب مع مسيرة

النضـج التـي نمـضي فيهـا.

إن العقـل العلمـي الحقيقـي لا يعـرف إلا ذهنـا صافيًـا وقلبًـا صادقًـا، فـلا تغـرُّه (ألـوان الحربـاء الخادعـة)، ولا يعجبـه (زهـوُ الطـاووس)، ومـن المهـم أن نـدرك أن الـذكاء الفطـري هبـةٌ مـن الله -عـز وجـل- ، أمّـا الاسـتخدام الجيـد للعقـل فإنـه يحتـاج إلى الاهتـمام.

الدمـاغ ليـس هـو العقـل، لكنـه يشـكل الوعـاء الـذي يسـكن فيـه العقـل، أمـا العقـل فإنـه مكـوَّن مـن مجموعـة الإمكانـات والمبـادئ التـي نسـتخدمها في التمييـز بـين الخـير والـشر والحسـن والقبيـح.

والمعرفـة هـي خبـز الدمـاغ -كـما سـبقت الإشـارة- ونسـتطيع القـول: إن العقـل يظـل مجوّفًـا وفارغًـا مـا لم يتـم ملـؤه بالمعـارف الجيـدة والمنهجيـات السـديدة. إنـه باختصـارٍ أشـبه بحاسـبٍ عمـلاقٍ، لا يقـوم بعملـه عـلى نحـوٍ جيـدٍ مـن غـير برامـج ممتـازةٍ يشـتغل عليهـا، والعقـل مـن غـير معرفـةٍ جيـدةٍ وخـبرةٍ ممتـازةٍ، قـد يطـرح حلـولا شـكليةً للمشـكلات، ويقـدم أفـكارا مجوفـةً، والعقـل يتفاعـل مـع المعرفـة التـي يختزنهـا كـما يتفاعـل مـع البيئـة التـي نعيـش فيهـا، والعاطفـة تجعـل مـن نفسـها مـا يشـبه الغشـاء أمـام عيـون العقـل، والمعلومـات مثـل السـلع قابلـةٌ للغـش، ومثـل كل الأقـوال قابلـةٌ للتزويـر، ومـن المعـروف أن المعلومـات الكثيفـة حـول أي شيءٍ قـد تقـف حائـلاً دون فهمـه عـلى الوجـه الصحيـح، تمامـاً مثـل الحقائـق

والمعلومات القليلة عنه، فللعقل طاقةٌ محدودةٌ على التحليل والتصنيف والغربلة لما يرد عليه، وحين يزيد على طاقته، فإنه يربكه ويشتته.

والعقل البشري في بنيته العميقة يقبل الخداع والتضليل على نطاقٍ واسعٍ، ولهذا فإن الأكاذيب التي يتم نشرها تؤثر في أحكامنا وطروحاتنا على نحوٍ هو أكبر مما نظن، وهناك شريحةٌ واسعةٌ من الناس يمكن وصفها بأنها ضحيةٌ حقيقيةٌ للمراوغة اللغوية وصناعة الكذب المتعاظمة! والعقل البشري -بعد هذا وذاك- بنيةٌ يسهل خداعها، فحين نزوده بمعلوماتٍ خاطئةٍ فإنه يقع في الخطأ بسهولة، إنه عقلٌ قادرٌ على البحث في الأدوات والأشكال والأساليب وكل الأمور المحدودة، لكنه غير قادر على البحث في مصيره الذاتي.

إن نعمة العقل على بني الإنسان تأتي في مكانتها وأهميتها بعد نعمة الإيمان، بل لولا العقل الذي كرّمنا الله به لما كان هناك تكليفٌ بالإيمان، ولا كانت هناك استفادةٌ من دعوات الأنبياء، ومن الواضح أن الإنسان بإمكاناته وقدراته وإبداعاته يختبئ في عقله، فالعقل أشرف وأنفع شيءٍ في ذواتنا، وهو أشبه بالعضلة؛ ينمو ويقوى ويكبر كلما أكثرنا استخدامه، ويذبل ويتراجع كلما همشناه وأهملناه، وبناء عليه، فالعقل لدينا قد يخطئ أو يتوهم أحياناً، ويصيب في أحيانٍ أخرى، فكيف يمكن أن نضبط العقل بأدواتٍ تستطيع أن تعطيه أفضل فرص

الإجابة عن الأسئلة، والمقدرة على محاكمةٍ منطقيةٍ للمعلومات الموجودة لديه؟ هذا السؤال هو ما يسعى هذا الكتاب إلى الإجابة عنه، ليست إجابةً نهائيةً فاصلةً، إنما يمكن اعتبار ذلك مقاربةً وتسديدًا، وهو سعيٌ إن كتب له التوفيق فذلك غاية المنى، وإن كانت الأخرى، فقد كان للمؤلف شرف المحاولة.

د. يحيى أحمد المرهبي

1/ 12/ 2023م

العقل ... الماهية والأهمية والمكانة

قد تكون السعادة أحيانًا في ترك الأشياء أكثر من الحصول عليها، أو في ترك الأشخاص أكثر من البقاء معهم، وقد تكون الثروة الحقيقية هي صحتك وسمعتك وراحة بالك، وقد يكون الرزق (عقلا راجحًا) أو شريكًا طيبًا أو ذريةً صالحةً، أو قد يكون الرزق علمًا نافعًا، وقد تكون القوة هي قوة تحكمك بنفسك وليس بالآخرين، وقد يكون الحب هو إيثار مصلحة من تحب على مصلحتك، وسعادة من تحب قبل سعادتك، وقد يكون حذرك سبب نجاحك، أو سبب فشلك إن أسأت استخدامه، وقد تكون ثقتك بنفسك مصدر نجاحك، والمغالاة فيها سبب سقوطك وفشلك، الأمر مرتبطٌ بك، ومتعلقٌ بقدرتك على إعمال عقلك وحسن توظيفه، فاختر أي الطريقين شئت!

إن هدف هذه الوقفات هو تنبيهكم - أصدقائي القراء - إلى ما يمكن أن تؤول إليه النتائج عندما لا نحسن التعامل مع النعمة، والهديّة والمنحة والعطية التي تفضل الله بها علينا، ألا وهي نعمة العقل، وما يمكن أن نجنيه من مكاسب دنيويةٍ وأخرويةٍ إذا وفّقنا إلى إعمال عقولنا واستغلال طاقاتها، فما يُدخِله الإنسان في عقله من أفكارٍ يصبح - غالبًا - واقعًا في حياته، وما يُسلّط على ظهر الإنسان هو - في الغالب

- ما في عقله وقلبه، ولو استخدم الإنسان عقله كما يجب، لعلم أن الشر الذي يقدمه للآخرين يبقى معه، وأن الخير الذي يتفضل به على الآخرين يعود إليه.

ولأن العقل والمنطق في زمننا هذا صار عملةً نادرةً، لذا وجب علينا حتمًا أن نعيد الاعتبار إلى العقل، وأنتم ما أنتم وحيث أنتم - أيها القراء الأفاضل - بسبب ما في عقولكم، والوهم - عزيزي القارئ - هو أن تغذي عقلك بخيالاتٍ مستحيلة التحقيق، وبأحلام يقظةٍ بعيدة المنال، إنها، (أي الخيالات وأحلام اليقظة) تكبر فتصبح وحشًا يلتهمك، تستولي على روحك، وتكبّل قواك العقلية، إنها تقيدك وتعجزك تماما، إنها تشبه إلى حد ما المخدرات، تعطيك إحساسًا زائفًا بسعادةٍ مؤقتةٍ، ونشوةٍ عابرةٍ، وتمنحك وعودًا غير حقيقيةٍ، ثم تتكشف لك الأمور عن سرابٍ بقيعةٍ يحسبه الظمآن ماءً، وهذه الحال هي الحال التي يتخبط فيها كثيرٌ من الشباب، دون أن يدركوا أن مصيبتهم لا تكمن فيما حولهم، بل فيما يدور في رؤوسهم.

لقد سبق أن أشرنا إلى أنّ العقل في حياة الإنسان نعمةٌ كبرى، وإذا كانت نعمة الإيمان هي أعظم النعم، فالنعمة التي تليها هي نعمة العقل الواعي الفاحص المتأمل، إذ بدون هذه النعمة لا تحصل تلك، وبدون هذه النعمة لا تعمل تلك عملها الأتم، ثم بدون هذه النعمة

لا تستقيم تلك على أمر الله، بل سرعان ما تنحرف بها الأهواء.

والعقل الواعي المتحرر المتأمل، هو أجلّ ما في الإنسان، بل هو أنبل ما يميزه عن الحيوان، وهو الأداة القيّمة القادرة على رفع الإنسان ومنعه من أن يتحول إلى سائمةٍ اجتماعية، أو إلى شيءٍ من الأشياء الجامدة أو المتحركة الخاضعة في جمودها وفي تحركها لإرادة المجتمع، دون أن تملك من أمرها شيئا، ألا ما أروع العقل وأنفذه عندما تتيقظ قواه وتجيش حيويته!، فيثور على الضلال والوهم وعلى الخداع والانخداع، وعلى كل ما يخالف الحق أو يستهين به، وفق وصف د. (عبد الحليم أبو شقة) له.

ولأمر ما اختار الإسلام ـ كلمة الإيمان ـ للدلالة على العقيدة، فالإيمان يباشر العقل والقلب معا، ويربط الفكر بالوجدان ربطًا وثيقًا، فليس الأمر قضية (قناعةٍ فكريةٍ) باردةٍ، وليس الأمر قضية (دفعةٍ عاطفيةٍ) خاويةٍ من القناعة العقلية، بل هو الالتحام الكامل بين الجانبين، حيث يصعب التمييز بينهما، والإيمان الذي في قلب المؤمن يجعل عقله أكثر حدةً، ومعصمه أكثر قوةً.

ولا شيء يزيد الإيمان كالتفكر في الأدلة العقلية الدالة عليه، فالإسلام لا يعرض منهجه بمعزلٍ عن (دلائله)، لأنه يدرك أن أحكامه وأخباره لا قيمة لها دون (براهينه)، ولم يمر بي - والكلام للمفكر الأمريكي

المسلم (جيفري لانج) - من قبل نصٌّ مقدسٌ يشدِّد على إعمال العقل بطرقٍ صحيحةٍ وتسخيره لتعزيز الإيمان كما فعل القرآن الكريم.

إن العقل مناط الوعي والرشد والبصر والتمييز والإدراك، ومن ثم يرتبط الإيمان بالعقل في العقيدة الإسلامية ارتباطًا وثيقًا، فكتاب الإسلام يتجه إلى العقل في تأييد الدين وترسيخ الإيمان، والله يبين الآيات لقومٍ يعقلون ويؤمنون، ويضرب الأمثال لقومٍ يتفكرون ويبصرون ويفقهون ويوقنون، ويسوق العبرة لأولي الألباب، والعالِمين لأنهم المرجوون للنظر في آيات القدرة الإلهية وتدبر النظام الكوني المحكم، والإيمان لم يوجد عبثًا، ولا يمكن أن يسير بتلقائيةٍ عشواء، كما وصفته د. عائشة بنت الشاطئ.

والتنويه بالعقل على اختلاف خصائصه لم يأت في القرآن الكريم عرضًا، ولا تردد فيه كثيرًا من قبيل التكرار المعاد، بل كان هذا التنويه بالعقل نتيجةً منتظرةً يستلزمها لباب الدين وجوهره، ويترقبها من هذا الدين كل من عرف كنهه، وعرف كنه الإنسان في تقديره. (عباس محمود العقاد، التفكير فريضة إسلامية).

إن الأمم لا تفنى عن نقصٍ بأعداد سكانها، ولو بفعل أعتى الكوارث، كما لا تفنى بفعل نقص فحولة رجالها أو خصوبة نسائها، بل تفنى بنضوب (عقلها)، فحين تفقد الجماعة البشرية عقلها الجمعي

تنـزل مرتبـةً عـن أحمـق الحيوانـات، كـون الانسـان يتلـذذ بالفتـك بأخيـه الإنسـان طغيانًـا وإجرامًـا، في حـين إنّ الحيـوان لا يفتـك بالحيوانـات الأخرى إذا شـبع.

لقـد دعـا نـوحٌ -عليـه السـلام- الحيوانـات مـرّةً واحـدةً فركبـت معـه السّـفينة، وقـضى تسـعمائةٍ وخمسـين سـنةً يدعـو النّـاسَ إلى الله فاختـاروا الغـرق! القضيّـة باختصـار كـما يصفهـا أدهـم شرقـاوي: غريـزةٌ سـليمةٌ أفضـل مـن عقـلٍ مريـضٍ.

ومـن حكمـة الله سـبحانه في الحديـث عـن العقـل أنَّـه لم يتحـدَّث عنـه بوصفـه شـيئًا لـه اسـم؛ إذ لم يَـرِدِ العقـل في القـرآن الكريـم بصيغـة الاسـم، وإنَّـما ورد بوصفـه فعـلًا وعمـلًا وممارسـةً وحركـةً في الحيـاة الفرديـة والاجتماعيـة، ولذلـك، فـإنَّ تفعيـل العقـل يقتـضي ممارسـة فعـل التدبُّـر في آيـات الله المسـطورة والمنظـورة، والنظـر والتبـصُّر والتفكُّـر والتذكُّـر والاعتبـار والتفقُّـه.

وبنـاء علـى ما سـبق، فـإن العقل في ماهيتـه ليس (آلـةً) بل (وظيفـةً)، إذ لم تـرد كلمـة (عقـل) في القـرآن إلا بمعنـى عمـلٍ أو فعـلٍ، (لا يعقلـون)، فهو (عمليـةٌ) وليـس (آلـةً)، والعقـل وظيفـةٌ لكسـب سـائر المهـارات، كـما يقـول أ. (جـودت سـعيد)، ومـن أهـم وظائـف العقـل: الفكـر والتدبـر والتذكـر والنسـيان، وهـي تـأتي في الإسـلام كقيمٍ فكريـةٍ متصلـةٍ باسـتخدام العقل.

وعندما تنصح إنسانًا فتقول له: احترم عقلك، واستند إليه في أحكامك! فيقول لك: أعطني معجزةً تؤيد هذه النصيحة! ماذا تصنع له؟ إنك تلفته إلى خطأٍ فيه فيلفتك إلى قصورٍ عندك!! إن المعجزات لا تجدي نفعًا مع عقلٍ بليد وفكرٍ غبيٍ، والعقل البليد هو ذلك العقل الذي لا يدرس الحياة ولا يستعد لما بعدها، وهو بالتأكيد ليس العقل الذي يفاخر به المؤمن أو يتشرف بحمله. وآفة المشركين والملحدين القدامى والجدد أنهم محبوسون وراء قصورهم العقلي، قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ (الملك: 10)، فالقرآن الكريم هنا، يخبرنا أن عدم استخدام العقل يعد ذنبًا من الذنوب التي يسأل الله عنها الإنسان يوم القيامة.

لقد سئل أعرابيٌّ: لِمَ آمنت بمحمد صلى الله عليه وسلم؟ فقال: ما رأيت محمدًا يقول في أمر (افعل)، والعقل يقول: لا تفعل، وما رأيت محمدًا يقول في أمر (لا تفعل) والعقل يقول: افعل، هذا الأعرابي مثالٌ لمن لا زالت فطرتهم العقلية سليمةً، أما في زمَن الماديات الطاغية والعقول المُغيّبة، فقد أصبح جلوسك بمفردك - في كثيرٍ من الأحيان - أجمَل مِن جلوسَك مَع أشخاصٍ ينظرون إلَى ماركة حذائِك قَبل عقلك.

وللمحاسبي كتابان، أحدهما بعنوان (شرف العقل وماهيته)،

والآخر بعنوان (العقل وفهم القرآن)، نستدل منهما على موقفه من قضية العقل، فهو يرى أن هناك ثلاثة معانٍ للعقل، أولها بمعنى الغريزة، والثاني بمعنى الفهم لإصابة المعنى، والأخير بمعنى البصيرة والمعرفة.

والإسلام يَعُدّ التفكير واستخدام العقل والتدبر في عوالم الطبيعة أعظم العبادات، وقد وردت بهذا المعنى رواياتٌ وأقوالٌ، من ذلك ما أوصى به أمير المؤمنين (علي بن أبي طالب) ابنه (الحسن) رضي الله عنهما، قائلًا له: يا بني، لا فقر أشد من الجهل، ولا عدم أشد من عدم العقل، ولا عبادة كالتفكر في صنعة الله عز وجل، وكأن هذه المقولة تشير إلى أن الإيمان له عنوانان وليس عنوانًا واحدًا: فهو يعمل في العقل ثم يذهب ليستريح في القلب.

إن كلَّ قانون (سنة من سنن الله في هذا الكون) يفرضُ على العقل نوعاً من الحتمية تُقيدُ تصرفهُ في حدود القانون، كما يخبرنا بذلك المفكر المسلم (مالك بن نبي)، فقانون الجاذبية - مثلا - طالما قيّد العقل بحتمية التنقل برًّا أو بحرًا فقط. ولم يتخلص الإنسان من هذه الحتمية بإلغاء القانون، ولكنه تخلّص من هذه الحتمية بالتصرف مع شروط هذا القانون الأزلية، والتعامل معه بوسائل جديدةٍ، تجعل الإنسان يعبر القارات والفضاء جوًّا، كما يفعل اليوم.

إن العقل يمكن أن يتخذ أحد موقفين إزاء المشاكل، إما أن يفرض فيها أنها تخضع لقوانين (سنن)، ولذا يمكن أن تخضع المشكلة للسيطرة عليها وتسخيرها، وإما أن يفرض فيها أنها لا تخضع لقوانين، أو لا يمكن كشف قوانينها، وبين هذين الموقفين مواقف متعددة، يتفاوت فيها القرب من أحدهما والبعد من الآخر.

إن الذين لا يرون أن للمشكلة قوانين، أو يفرضون لها تفاسير خاطئةً، لا يمكن أن يصلوا إلى نتائج، فعدم اعترافهم بالقانون لا ينفي القانون؛ وإنما يمنعهم من السيطرة عليه وتسخيره، ويجعل منهم أداةً يتلاعب بها الآخرون، الذين علموا القوانين الصحيحة، كما وصف حالهم أ. (جودت سعيد).

والإنسان حين لا يدرك أن للكون نظامًا، وللعقل سلطانًا، يعيش في فوضى، تأتيه النكبات تلو النكبات، والضربات الموجعة تلو الضربات، ولا يعرف لها سببًا معقولًا، ولا يشعر أنه إنما يصيبه ذلك لأنه عطّل ما أودع الله فيه من قوى عقليةٍ، وكان بمقدوره أن يتحاشى هذه النكبات والضربات لو أنه أحسن استخدام هذه القوى العقلية ووظفها فيما يعود عليه بالنفع، قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (آل عمران: 117).

ووفقًا لما سبق، يمكن القول إن العقل في الإسلام يحتل مكانًا

مهمًّا قلَّ أن نجد له نظيرًا في غيره من الشرائع، فهو أساس التكليف والاختيار والحساب، وقد عُدَّت المعرفة والعلم - وهما أداتا العقل - أساس التفاضل بين الناس، قال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (الزمر: 9)، والتفكير الذي هو وظيفة العقل يُعدُّ فريضةً إسلاميةً، وليس مستحبًّا فحسب، كما أشرنا إلى ذلك سابقا.

سأل المؤلف مرافقه عند أول خروجهما من مطار طوكيو: ما هو سرّكم أيها اليابانيون؟ فأجابه وهو يشير بإصبعه إلى (عقله) أولاً، وإلى (عضلات ساعده) ثانياً: العقل والساعد! لا نملك غير ذلك! إن الشعب الياباني عرف منذ البداية ماذا يريد، وما هي أهدافه، وما هو المطلوب منه لتحقيقها، وقد تمَّ له ذلك كلُّه ضمن صيغةٍ قوميةٍ شاملةٍ، وضمن استراتيجية عملٍ حضاريٍّ جديدٍ، فحركة الساعد إذا لم تستند إلى عقلٍ ناضجٍ واعٍ، تتحول إلى أداة هدمٍ، وما حالات الفساد والإفساد في الأرض وكذا الحروب والصراعات التي لم تضع أوزارها بعد إلا دليلًا واضحًا على أن الساعد يعمل في حالة غيابٍ تامٍّ للعقل، وهناك ممن يراقبون وضعك كإنسانٍ، يخشون من عقلك أن يفهم، ولا يخشون من جسدك أن يكون قويًّا، لأنهم على درايةٍ تامةٍ بأنك ستدمر نفسك إذا قوي ساعدك وتعطّل عقلك.

إن الله جلّت قدرته، مثلما جعل لكل منا بصمة إصبعٍ يستحيل أن تتطابق مع بصمة إنسانٍ آخر - مما جعل مهمة التحقيق الجنائي مُيَسّرةً إلى حدٍّ كبيرٍ - قد جعل لكل منا كذلك عقلًا هو الآخر له بصمته الفكرية، التي يصعب أن تتطابق تمامًا في كل شيءٍ مع بصمة فكر عقلٍ آخر، مما يؤسس لاختلاف وجهات النظر، ويشرّع لتبادل الحوار. «فالعقل وكيل الله عند الإنسان». كما يقول الجاحظ. «وقوام المرء عقله، ولا دين لمن لا عقل له». كما يقول ابن جريج.

إن العقول خلقها الله ليتم استعمالها، فإذا توقفت عن القيام بوظيفتها تحوّل الإنسان إلى كائنٍ تابعٍ، يفكر له غيره ويحدد له مستقبله غيره، وفي هذا إهدارٌ لآدمية الإنسان وكرامته، «إن الحديد يصدأ إذا لم يُستخدم، والماء يركد إذا لم يتحرك، وهذا ما يحدث للعقل إذا لم يفكر». كما يقول (دافينشي)، والمخ مثل العضلة في الجسم كلما استخدمته أكثر أصبح أقوى وأكثر نشاطًا على المدى البعيد، فإلى كُلِ مُصابٍ بفيروسات العقل الخطيرة، وجراثيمه المُمرِضة، تلك التي تعكر عليه صفو حياته، قد وهب الله لك عقلًا فاستعمله ولو قليلًا، وستُشفى بإذن الله، فحين توظف عقلك وتحترمه وتقدره حق قدره، سيأخذك أعمق مما تتخيل.

إن مثل العقل مثل البصر، ومثل العلم مثل السراج، فمن لا

بصر له، لا ينتفع بالسراج، ومن له بصر بلا سراج لا يرى ما يحتاج إليه، كما جاء في هامش رسالة المسترشدين، ولهذا كانت الحكمة كما نقول: (عصير مركز) ـ إذا صح التشبيه ـ للخبرة البشرية والتأمل العقلي والبصر القلبي، وليس كل ذي عقلٍ عاقلًا، وما أسهل أن تكون عاقلًا... بعد فوات الأوان.

إن العقل أثمن ما وهب الله للناس، والإيمان الذي يقوم على تخدير العقل أو إماتته لا وزن له ولا خير فيه، ولكنْ هناك جماهير غفيرةٌ تنحِّي العقل جانبًا ثم تتكلم، فكيف نسمع لها؟! هكذا يتساءل الشيخ (محمد الغزالي) في مرارةٍ، وقديمًا قيل: «كِلْ لكل إنسان بمعيار عقله، وزِنْ له بميزان فهمه، حتى تسلم منه وينتفع بك»، وهذا القول تفسيرٌ جليٌّ لحديث النبي صلى الله عليه وسلم كما في البخاري عن على بن أبى طالب -رضي الله عنه- موقوفًا: «حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يُكذّب اللهُ ورسولُه»، وفي مسلمٍ عن ابن مسعود -رضي الله عنه- قال: «ما أنت بمحدثٍ قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنةً».

وإذا كان الإيمان هو المهمة الكبرى للعباد، فالعقل هو السبيل إلى أداء تلك المهمة، كما أنّه السبيل إلى كل نهوضٍ وتقدمٍ.

إن صناعة الإنسان هي أعظم صناعةٍ، وعقل الإنسان هو قائده، وتفكير الإنسان هو موجهه؛ لذا كانت صناعة تفكير الإنسان أشق

كثيرًا من صناعة أية آلةٍ من الآلات مهما دقّت أو عظمت، وفق تعبير د. (عبد الحليم أبو شقة)، والعقل هبة الله لكل حيٍّ، ولكن أساليب تفكيره كسبٌ يكتسبه الإنسان من خلال معالجة النظر ومن التربية ومن التعليم ومن الثقافة ومن آلاف التجارب التي يحياها المرء في هذه الحياة.

والله - سبحانه - يطلب من الإنسان أن يتثبَّتَ من صحة ما يسمع؛ فليس كلُّ ما يُروى صحيحًا، والقلب حين يشتاق يسعى لإقناع العقل بحججه وإن كانت واهيةً، وعلى المرء أن يتثبتَ من صحة ما يَرى بتكرار الملاحظة بالعقل والمنطق السليم، حتى لا تسوقه الأوهام والظنون والأباطيل عن منهج الله، ومثل الإنسان الذي لا يستخدم هذه الأدوات ويوظفها لما خلقت من أجله - وفي مقدمتها العقل - كمثل الأنعام، بل هو أضلُّ، وسوف يسأل الله الإنسانَ عن استعماله السليم لهذه الأدوات، وسوف تشهد هذه الأدوات للإنسان أو عليه، على أساس منهج استعماله لها وغرضه من استعمالها، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ (الإسراء: 36).

كان المطر يتسرب من السطح، فقال الضيف لمضيفه: لماذا لا تصلح السقف حتى تمنع تسرب الماء؟ فرد عليه المضيف: كيف

أصلحه والمطر ينهمر؟!

فقال الضيف: ولماذا لا تصلحه بعد توقف المطر؟ فقال المضيف: لأن التسرب يتوقف حالما يتوقف المطر!!! أترك لكم المجال لتتخيلوا مدى فقر العقول الذي يحمله أمثال هذا الرجل.

والإنسان يعجز أحيانًا عن فهم بعض العقليات والمواقف والسلوكيات والتصرفات، ويحاول بشتى الوسائل أن يوجد لها مبررًا أو سببًا وجيهًا، ونادرًا ما يوَفّق، وكثيرًا ما يخفق في ذلك.

يرى الإنسان بأم عينيه - في حياته وفي حياة الآخرين - أننا نجرب لحل مشكلاتنا حلولًا قد جرّبناها أكثر من مرةٍ ولم تنجح، ومع ذلك نصرُّ على تكرارها بنفس الطريقة للمرة الألف، دون أن نتوقف ولو قليلًا من الوقت، ونستعمل عقولنا في إدراك عدم جدوى هذه الحلول التي لم نخرج منها بنتيجة، وأنّ علينا البحث عن حلولٍ أخرى، فالعقلية التي صنعنا بها المشكلة تحتاج إلى تغيير، إذ لا يمكن أن نحل تلك المشكلة بنفس تلك العقلية التي صنعناها بها، لأن هذا غير ممكنٍ مهما حاولنا.

هذه العقول المجدبة، هي تلك العقول المشحونة بالأقوال والأفكار المتضاربة والمعلومات المتناثرة والمتضاربة (كالأدوية النفيسة

في صيدلية)، أما العقول الثرية فهي تلك العقول التي تملك المقولات المرتبطة بالسنن وطبائع الأشياء، كما تملك الملاحظات الذكية على الظواهر العامة.

وبناءً على ما سبق، يمكن القول: إنّ العقل مصطلحٌ يُستخدم عادةً لوصف الوظائف العليا للدماغ البشري، ولا سيما تلك الوظائف التي يكون فيها الإنسان واعيًا على نحوٍ شخصيٍّ، وذلك حين يجادل ويتذكر ويحلل الأحداث ويلوم نفسه، ويراجع مشروعاته، وحين يثور، ويتعاطف ويفرح... الدماغ إذن ليس هو العقل، بل هو المكان الذي يتواصل العقل من خلاله مع الجسم البشري حيث يستخدمه لإيصال الرسائل والأوامر إليه، والدماغ هو المنفّذ لإرادة العقل ووسيط التركيز الذهني، كما أشار إلى ذلك د. (عبد الكريم بكار).

وقد أثبتت الاستكشافات الحديثة في العقل البشري أن ثمّة حدٍّ بين المخ والعقل، وقد نظر العلماء للأخير على أنه برامج المخ أو أنه الجهاز الإجمالي الذي يتيح للمخ التعامل مع الرموز، بيد أنه يمكننا بشكلٍ آخر القول إنّ المخ هو العضو، وأن العقل هو ما يفعله المخ.

وعقل الإنسان - كما يصفه الدكتور (عبد الوهاب المسيري) - ليس مجرد مخٍّ ماديٍّ، صفحة بيضاء تتراكم عليها المعطيات المادية، كما تحاول بعض الرؤى المادية أن توهمنا، وإنما هو عقلٌ له مقدرةٌ توليديةٌ،

كـما أنـه مسـتقر كثـيرٍ مـن الخـبرات والمنظومـات الأخلاقيـة والرمزيـة، ومسـتودع كثـيرٍ مـن الذكريـات والصـور المخزونـة في الوعـي واللاوعـي.

كأن الله جـل جلالـه يريـد منـا أن نـدرك أن الميـزة الأساسـية التـي في حوزتنـا، لا تكمـن في أن لنـا أدمغـةً ذكيـةً وعقـولًا جبـارةً، وإنـما تكمـن في اسـتثمار تلـك العقـول وتحريكهـا عـن طريـق النظـر والتبـصر والتذكـر والتأمـل، وفهـم الجـذور والأسـباب وإدراك العلاقـات والخصائـص والميـزات للأشـياء التـي نحتـك بهـا أو نسـتخدمها.

إن تثقيـف العقـل وتدريبـه عـلى إصـدار الأحـكام يشـبه تقويـة العضـلات، حيـث يمكـن بعـد تقويتهـا أن نسـتفيد منهـا في أي عمـلٍ يتطلب القيـام بـه اسـتعمالها.

والعقـل يتغـذى بالمعرفـة التـي يسـتخدمها أثنـاء عملـه، وإننـا ونحن نعلِّـم نتعلـم، كـما أن عقولنـا تتأثـر بالمعلومـات التـي تعالجهـا والمشـكلات التـي تسـعى إلى حلهـا، والعقـل كلـما ازداد نضجًـا جعـل صاحبـه يشـعر بالمسـؤولية عـن تصرفاتـه وأعمالـه ومواقفـه. د. (عبـد الكريـم بـكار).

والعقـل في حـال تقدمـه وارتقائـه، ينتـج الأسـئلة الإبداعيـة ويجتهـد للإجابـة عنهـا، لكنـه يكـف في حـال جمـوده وعطالتـه عـن التسـاؤل، وكأن طـرح الأسـئلة والسـعي الجـاد للإجابـة عنهـا يعـبر عـن خصوبـة العقـل

وشبابه وحيويته، على النحو الذي يعبر به الحمل لدى المرأة، في حين إن العقول المجدبة عقولٌ عقيمةُ هرمةٌ معاقةٌ (لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً) كما جاء في حديث النبي صلى الله عليه وسلم، والحديث صحيح متفق عليه.

والعقل في حال تشغيله قد ينتج الأخطاء الفكرية والأوهام والضلالات، كما يفعل الماء حين نسقي به الزرع، فإنه لا ينمو به الزرع فحسب، ولكن تنبت إلى جواره الأعشاب الضارة أيضًا، وكأن هناك ضريبةً لا بد أن تُدفع ممن يسعون لتشغيل عقولهم وتوظيفها، وأن الطريق ليست أمامهم ممهدةً كما يظن البعض، بل هناك صعوباتٌ وعوائق وأحيانًا تضحياتٌ يقدمها من يقْدمون على تشغيل عقولهم، ويقومون ببذلها عن طيب خاطرٍ، لأنهم يعرفون الثمرة النهاية المرجوة لمثل هذه العملية، وكأن لسان حالهم يقول: (ما مليح إلا وحمّى) أو (ما سبر المليح إلا وقد عذّب أهله).

يقول (ديكارت) في كتابه (المقال على المنهج): «إنّ العقل هو أحسن الأشياء توزعًا بين الناس بالتساوي، إذ يعتقد كل فردٍ أنه أوتي منه الكفاية، حتى الذين لا يسهل عليهم أن يقنعوا بحظهم من شيءٍ غيره (كالمال والمكانة الاجتماعية مثلًا)، إلا أنه ليس من عادتهم الرغبة في الزيادة لما لديهم من العقل، وأنه لا يكفي أن يكون للمرء عقلٌ، بل

المهم هو أن يحسن استخدامه، وإن أكبر النفوس لمستعدةٌ لأكبر الرذائل مثل استعدادها لأكبر الفضائل، والذين لا يسيرون إلا جِدّ مبطئين، يستطيعون حين يلزمون الطريق المستقيم أن يسبقوا كثيرًا من ينحرفون ويبتعدون عن هذا الطريق».

وإنسان هذا العصر، الذي ابتعد عن الطريق المستقيم، مشرق الوجه مظلم الروح، كثير الذكاء قليل العقل، وقد أثبت التاريخ البشري والاجتماع الإنساني أن الفضائل البشرية والإنجازات المتقدمة لا توجد إلا مع العقل النيّر، وأن الرذائل والممارسات المتخلفة هي قرينة العقول المتخلفة.

والثقافة الرصينة - كما يصفها د. (عبد الكريم بكار) - هي دائمًا ثقافةٌ عقلانيةٌ، تبتعد عن تأثيرات العواطف والميول الشخصية، وبعض الآباء والمعلمين قد يسوقون قصصًا وأخبارًا غريبةً من أجل جذب أبنائهم أو طلابهم، كي يتابعوهم ويستمعوا لأقوالهم، وهذا أسلوبٌ ضارٌّ بعقول الأبناء والطلبة، لأن الغرابة والخرافة والأساطير تشوّه البنية العقلية لدى الأبناء والطلبة، وتساعد على محو الفواصل القائمة في أذهانهم بين المعقول واللامعقول، والسهل والصعب، وهذا ما تقوم به في عصرنا الحاضر وبكل اقتدار (أفلام الكرتون)، التي تقدم للأطفال والناشئة بمكرٍ عالمًا من الخيال، وتبيع لهم الوهم بسخاء، وترسخ في

أذهانهم اللامعقول بإصرار، وأحيانًا لا يسلم من ذلك حتى الكبار.

وإذا كان تعذيب الناس جسديًّا يُعدُّ جريمةً لا تقرها الأديان ولا القوانين الوضعية، فإن تشكيل عقولهم على نحوٍ خرافيٍّ هو جريمةٌ أكبر، ومع ذلك فإن الأوهام - مهما علا شأنها - لا تستطيع الصمود طويلًا، إذا توجهت نحوها أنوار العقل والمنطق.

وما دامت الحرب تبدأ في عقول الرجال، كما يؤكد على ذلك أ. (خالد محمد خالد)، فإنه ينبغي أن تُوطّد دعائم الدفاع عن السلم في أذهان الصغار وعقول الرجال أيضا، فالسلام والحرب يبدأان في عقول الناس أولًا، وينتهيان في عقولهم أولًا أيضًا.

والملاحظ أننا نحقن عقولنا وعقول ناشئتنا بالأفكار ولا نهضمها، ولا ندربهم على هضمها، وتكون النتيجة هي قتل التفكير والابتكار، والفرق بين هضم الأفكار وحقنها كالفرق - تمامًا - بين الحقن بالطعام وهضم الطعام، فلو أنّ إنسانًا قال لنفسه: لماذا أُتعب نفسي بغلي الحليب وشربه وملء معدتي به!؟ دعني أصبّه مباشرة في شرايين لينقله الدم إلى حيث يُراد له، لكانت النتيجة إفساد تركيب الدم، وتسبّب ذلك في قتل هذا الإنسان، أما حين نتناوله لتهضمه مِعَدُنا فإنه يمرّ في عملياتٍ دقيقةٍ من التحليل والتركيب والفرز، ثم يُوَزع ما كان صالحًا منه على الأعضاء، وما كان غير صالحٍ يُطرد خارج الجسم،

وفـق تشـبيه الدكتـور (ماجـد عرسـان الكيـلاني).

إن بعـض الدراسـات تذهـب إلى أن العقـل البـشري لم يُسـتثمر منـه حتـى الآن إلا نحـو ٪15 وأن الاسـتفادة مـن باقـي إمكاناتـه الكامنـة تحتـاج إلى شروطٍ تربويـةٍ وثقافيـةٍ واجتماعيـةٍ، لا بـد مـن توفيرهـا، وإلا فـما أسـهل أن ينصـاع العقـل لأمـر العـادة والإلـف والتطابـق، و«العقـل البـشري إذا لم يكـن مدربًـا عـلى التفكـير الصحيـح لـن يعـرف الفـرق بـين شيءٍ يهـدد حيـاة صاحبـه أو شيءٍ يُغضـب صاحبـه، فهـو في كلتـا الحالتـين سـيفجّر في داخـل الإنسـان الكميـة نفسـها مـن الأدرينالـين، والكميـة نفسـها مـن الطاقـة، وبالقـوة نفسـها»، كـما يقـول الدكتـور (إبراهيـم الفقـي).

والعقـل في عمـق ثقافتنـا الإسـلامية، لا يعنـي القدرة على الاكتشـاف، بمقـدار مـا يعنـي طاقـةً جيـدةً عـلى تحقيـق التـوازن الشـخصي، وتـوازن المرء مـع بيئتـه، وتتمثـل عقلانيـة الإسـلام في احتكامـه إلى غايـة مـا لـدى العقـل الإنسـاني مـن قـدرةٍ نقديـةٍ، ولا يخشـى الإسـلام مـن الدليـل المضـاد، ولا يقبـل التأسـيس عـلى أسرارٍ، ولا يقيـم دعـواه عـلى مشـاعر باطنيـةٍ، أو عـلى شـكوكٍ أو لا يقـين جـواني مـا، أو عـلى أمـانٍ أو رغبـةٍ في أن تكـون الحقائـق عـلى غـير مـا هـي عليـه في الواقـع، فدعـوى الإسـلام عامـةٌ وعلنيـةٌ، تخاطـب العقـل، وتسـعى إلى إقناعـه بالحقيقـة، وليـس إلى قهـره بـما هـو فـوق قدرتـه عـلى الفهـم. د. (إسـماعيل الفاروقـي).

ولـذا، نحـن مطالبـون بـأن نُعمِـلَ عقولنـا، لأننـا نعـرف أنـه لا يوجد قانـونٌ واحـدٌ عـامٌّ جاهـزٌ تمامًـا، ولا توجـد إجابـاتٌ نهائيـةٌ، وأن المعرفـة مـن ثـم، هـي ثمـرة محاولـةٍ إنسـانيةٍ دائبـةٍ للتعـرف عـلى بعـض جوانـب الكـون، وهـي محاولـةٌ ستسـتمر إلى أن يبـدل الله الأرض غـير الأرض والسـموات، وحـين يصبـح الإيـمان عبـارةً عـن (قناعـةٍ عقليـةٍ) ويكـف عـن توجيـه السـلوك، فـإن حزمـةً ضخمـةً مـن الأمـراض النفسـية تجتـاح كيـان المسـلم، فتحـول حياتـه إلى شيءٍ لا يطـاق.

والخلاصـة، فقـد أودع الله في الإنسـان نعمـة العقـل، لتكـون أداةً توصـل الإنسـان إلى معرفتـه بـالله - سـبحانه وتعـالى-، وليتدبـر مـن خلالهـا آيـات الله في الكتـاب، ليهتـدي بهـا، وليشـهد آياتـه في الآفـاق، فيشـهدها وينتفـع بهـا، فيـارب انفعنـا بعقولنـا، واجعـل مـا نحـن صائـرون إليـه، أهـم إلينـا ممـا نحـن مدبـرون عنـه.

العقـــــل والنقـــــل الصريـح لا يخالف الصحيح

حتى الرؤية بالعين المجردة، لا تكفي لإقناع من صرف عقله عن سبيل الإقناع؛ لأنه يتهم بصره وسمعه فيما رأى بعينيه وسمع بأذنيه قال تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ١٤ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ (الحجر: 14 ـ 15)، وكل شيءٍ في الأرض والسماء كافٍ لمن جرّد عقله من أسباب الإنكار والإصرار، هذا هو حال من لا يريد أن يقتنع، تراه يختلق المعاذير، ويبحث عن المبررات، ولو أراد الاقتناع لكان الدليل كافيًا لإقناعه، ومثل هذا الإنسان يمكنه أن يصنع خلافًا في المتفق عليه، واتفاقا في المختلف فيه، لا لشيءٍ إلا ليرضي قناعاته المريضة، ولديه استعدادٌ ليُسعر حربًا بين العلم والدين، والعقل والنقل، حتى يستمر على قناعاته الراسخة.

إن فك الاشتباك الموهوم بين العقل والنقل، سيبدو في هذه اللحظة أمرًا ضروريًا، وعاملًا مهمًّا من عوامل اليقظة العقلية للمسلم، فالمسلم هنا بين أمرين، إما أن يقبل العقل ويتهم النقل ويرفض حكمه، وإما أن يقبل النقل ويتهم العقل ويرفض حججه، ولو أن المسلم أعمل عقله كما ينبغي له، وقام بتمحيص المصدرين، ونظر

وتأمل في صريح العقل، ونظر وبحث في صحيح النقل ـ أقول إن المسلم لو فعل ذلك في حال ظهر خلافٌ بينهما- لظهر له وجه الحق، وهو إما أن يكون النقل صحيحا وحجة العقل ضعيفةٌ واهيةٌ، وإما أن يكون النقل ضعيفًا سندًا أو متنًا، وربما أصاب الضعف كليهما معًا.

إن ما ينكره العقل الصريح بحججٍ صحيحةٍ يردّه النقل الصحيح، أي أن كثيرا من العادات السيئة والتقاليد الضارة والمفاهيم الخاطئة ينكرها العقل ويردها النقل. حسب توصيف د. (عبد الحليم أبو شقة).

والعلاقة بين النقل والعقل موضوعٌ كبيرٌ، ولكن تسليمنا بأن الله هو الذي أرسل الأنبياء بالوحي، هو - سبحانه وتعالى- الذي خلق العقل أيضًا، وهذا يجعلنا نسلّم مبدئيًّا بأنه لا يوجد بينهما تعارض، مادام المصدر واحدًا.

فالإمام (أبو حامد الغزالي) «قد جعل كلاً من العقل والنقل لا يرى أحدهما ذاته إلا في مرآة الآخر، فالوحي (النقل) لا يخاطَب إلا بالعقل، وبانعدام العقل أو غيابه يفقد الوحي معناه، وكذلك العقل عندما ينتهي إلى السؤال الذي لا سؤال قبله، لا يجد النور إلا في الوحي». وبهذا يتساند النقل مع العقل ويتكاملان، فلا يرى العقل والنقل أحدهما إلاّ في مرآة الآخر، فالعلاقة بينهما هنا علاقةٌ تكامليةٌ وتلازميةٌ.

والحقيقة أن الشريعة بمصادرها النقلية والعقلية جاءت وافيةً بحاجات البشر، ومتضمنةً تحقيق صلاح الفرد والمجتمع والعالم، وأنها فتحت للعقل باب النظر والاجتهاد في إطار النصوص، تفسيرًا وتأويلًا واستنباطًا، بحيث يكون العقل تابعًا للشرع لا العكس، ذلك أن العقل معرّضٌ للخطأ والصواب، فما وافق النصوص كان مقبولًا وما خالفها كان مرفوضًا.

وقد تفرّد المنهج الإسلامي بهذه النظرة المتوازنة التي جعلت النقل يخاطب العقل ويرتاد له المواطن التي لا يحسن ارتيادها ولا يملك أدواتها من عالم الغيب الفسيح، وجعلت العقل يعقل النقل ويتفهمه، ويستدل له، ويرتاد له أفضل سبل التطبيق والتنزيل على الواقع، فلا أحد منهما يمكن أن يكون بديلًا للآخر، ولا أحد منهما يمكن أن يغني عن الآخر. وكل منهما من عند الله، فالنقل هبة الله تعالى للبشرية ليهديها سبلها ويخرجها من الظلمات إلى النور، والعقل هو الطاقة المستقبِلة للوحي القادرة على تلقيه وفهمه، والاستفادة منه وبه، وتنزيله على الواقع. د. (طه جابر العلواني).

وزبدة القول، وفق تعبير أ. د. (فؤاد البنا)، هي أنه ينبغي أن يتعانق الوحي والعقل وأن تتكامل الروح والمادة، وأن يتضافر عالم الغيب مع عالم الشهادة، وذلك ضمن مشيئة الله العبادية وإرادته

الكونية التي تجسدها السنن والنواميس، ويجب أن يتحقق ذلك بطريقةٍ متوازنةٍ بحيث لا ينفك العلم عن الإيمان ولا ينفصل العقل عن النقل ولا ينفصم التسبُّب عن التوكل.

وقد انقسمت الفرق في الإطار الإسلامي ما بين محقِّرٍ للعقل، مقللٍ من شأنه، محجّمٍ لدوره، وبين مبالغٍ في تقدير طاقته وقدراته، وطغت الصورتان المرتفعتان على صوت الوسطية الإسلامية الجامعة، التي جمعت بين النقل والعقل بتوازنٍ عجيبٍ جعل كلًّا منهما ضروريًّا للآخر ومكملًا لدوره.

ولو تأملنا في تاريخ العلاقة بين العقل والنقل لوجدنا أمامنا عدة مدارس مختلفةٍ نذكر منها على سبيل المثال المدارس الآتية:

- مدرسة الرازي وابن رشد، ترى أنه قد يحدث تعارضٌ بين العقل والنقل، والعقل هو المرجعية.

- مدرسة أبو حامد الغزالي، يرى أنه قد يحدث تعارضٌ بين العقل والنقل، ولكن النقل هو المرجعية.

- مدرسة ابن تيمية، يرى أنه لا يحدث التعارض بين العقل والنقل، والحل هو مراجعة فهم العقل للنقل.

- مدرسة الدكتور إسماعيل الفاروقي، يرى أنه قد يحدث تعارضٌ مع

العقل منطقيًّا في الظاهر، ولكنه ليس تعارضًا نهائيًا، ولا محل لطغيان أحدهما على الآخر، والحل مراجعة فهمنا للنقل، أو مراجعة النتائج العقلية أو المراجعتين معا.

- مدرسة الدكتور فتحي ملكاوي، يرى أنه لا يحدث تعارض بين العقل والنقل، حيث إن النقل والعقل مستويان مختلفان، فالنقل مصدر والعقل أداة.

ولهذا نجد الإمام الشاطبي حريصًا على أن يوضح أنه في حال تقديم النقل على العقل، فإن ذلك لا يتضمن حطًّا من قيمة العقل، وإنما المقصود أن تبديد ليل المعرفة يقتضي أيضًا التحرير من بعض المفاهيم المشتركة، التي قد تجعل من الظن علمًا، ومن الهوى عقلًا، ومن المصالح الذاتية والأغراض الخاصة تشريعًا، والسبب في التطابق الوثيق بين العقل والنقل في تحليل ابن تيمية هو أن: (الله فطر عباده على الحق، والرسل بعثوا بتكميل الفطرة وتقريرها، لا بتحويل الفطرة وتغييرها، وأما أعداء الرسل فيريدون أن يغيروا فطرة الله).

والعقل والنقل إذا اجتمعا صحّ الرأي، كما يشير إلى ذلك الشيخ (عبد العزيز الطريفي)، وترك واحدٍ منهما ضلالٌ، فقد ضلّت الليبرالية التي ألّهت العقل، حين اعتمدت على العقل بلا نقلٍ، وضلّت في المقابل فرقٌ أخرى ألغت وظيفة العقل، واعتمدت النقل بلا عقلٍ.

والقرآن يقرر أن الرحمة الإلهية لم تكتف بدلائل العقل حتى أيدتها بشواهد النقل، وأنها قطعت حجة كل غافلٍ وكل متواكلٍ.

ومن هنا فقد جعل القرآن الرؤية التوحيدية الأساس المتين لبناء الشخصية الحضارية الفاعلة، حيث ارتقى بتصرفات الإنسان ووحدتها من خلال الارتقاء بتصوره الكوني ورؤيته التوحيدية التي لا انفصام لها ولا ثغرات فيها، إذ ينسجم العقل مع النقل، ويتعانق الجسم مع الروح وتتعاون الشهوات مع الأشواق، وتنساب الدنيا مع الآخرة دون أي تعارضٍ أو تناقضٍ، كما عبّر عن ذلك الدكتور (فؤاد البنا).

ونحن نؤمن أن (النقل) الذي ينطلق العقل منه، ويعود العقل إليه، ويطمئن العقل به، هو: القرآن وصحيح السنة، وهذا يعني أن الإقلاع الحضاري لا يمكن أن يتم إلا بجناحي النقل والعقل، والنقل هو منبع الثوابت، والعقل هو منبع المتغيرات.

من مآسي التراث اختزال البعض للعلوم الشرعية أو العلوم النافعة في علوم النصّ فقط، وطرد علوم النفس والتربية وعلوم الكون والطبيعة من بستان العلوم، وقد روِّج لهذا الطرح وبشكل منقطع النظير بعض النخب ذات الاتجاه الحرفي الغافل، إلى درجة أن كثيرًا من تلك المآسي لا تزال تملأ التآليف المدرسية إلى يومنا هذا، فيقع التمييز بين علمٍ نقليٍّ وعلمٍ عقليٍّ، وكأن النقل لا عقل فيه، وبين علمٍ شرعيٍّ

وعلمٍ كونيٍّ، وكأن الشرع لا كون معه، الأول نافع والثاني ضار، ومتى كان العلم بخلق الله ضارًّا بالإنسان؟! أو كما يتساءل د. (طه عبد الرحمن) في كتابه (سؤال الأخلاق): هل يعقل أن يصير العلم الذي أثنى عليه الله تعالى في كتابه العزيز، والذي أوصى به رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم ضارا للإنسانية؟

إن استبعاد المنهج الغيبي الخرافي، لا يعني المساس بقاعدة «الإيمان بالغيب»، التي هي جوهر الارتباط الديني في الإسلام وفي المسيحية على السواء، حسب تصور الدكتور (أحمد كمال أبو المجد)، وإنما يعني - في الحقيقة - تحديدًا لمجالها بالأمور الخارجة عن نطاق الحواس والعقل... كما يعني إعادة العقل إلى عرشه الذي أنزل منه خلال فترة «البيات الحضاري وإغلاق باب الاجتهاد»... إنه يعني في بساطة، تثبيت منهجٍ للمعرفة يعتمد على العقل وعلى النقل معا، كما يشجع هذا المنهج العقلَ على ارتياد كل أفقٍ، والتنقيب في كل مجالٍ بحثًا عن الحقيقة، واكتشافًا لمواضع المصلحة، ووزنًا لكل قديمٍ وكل جديدٍ بروحٍ نقديةٍ موضوعيةٍ.

إن النقل يقرر الحقائق الكونية والاجتماعية، والعقل يكشف عن موازين الحركة الداخلية، التي تصنع تلك الحقائق، والتي من شأنها أن تجدد هذه الصنعة إذا توافرت لها ظروفٌ وشروطٌ مماثلةٌ.

ويمكن تحديد العلاقة بين الوحي والعقل في دوائر ثلاثٍ أشار إليها الإمام أبو حامد الغزالي بقوله: «ما لا يعلم بالضرورة ينقسم إلى:

1- ما يعلم بدليل العقل دون الشرع.

2- وإلى ما يعلم بالشرع دون العقل.

3- وإلى ما يعلم بهما».

فالنقل والعقل لهما وجودٌ معتبرٌ، ولكن لكل منهما دورٌ في تحقيق مقاصد الخالق، ومقتضى الخطاب الشرعي، وقد يتكاملان وقد يستقلان، ولكن لا يتخالفان أبداً.

والعلاقة بين الوحي والعقل والواقع علاقةٌ جدليةٌ تفاعليةٌ، ووفق تعبير د. (يحيى رضا جاد)، نحن أمة:

- تقرأ النقل بالعقل، وتضبط العقل بالنقل.
- وتصل الظواهر بالقيم، والأحداث بالعِبَر.
- وتفهم أن عصر نزول النص مجرد «وعاء»، تتحقق فيه وعن طريقه مقاصد النص وقيمه، فليس هو عين الماء التي «أخرجت» لنا الماء، وإنما هو جدران البئر الذي «نزمُّ» فيه الماء و«نحفظه» أن يضيع سدى، إنه «المثال» الذي نحتذيه بأن «ننساح وراء أهدافه ومقاصده»

لا «هياكله»، إنه «السابقة الدستورية» التي يجب أن نقيس على «نهجها وروحها» أبدًا، وتُعمِل «النصوص» في «الواقع المتنوع المتغير» لا عن طريق «استدعاء دلالات النص» وفقط، وإنما أيضًا وعلى ذات الدرجة من الأهمية، بـ «توصيف الواقع بوصف يُمَكن من إنزال حكم النص عليه».

وخلاصة هذه الرحلة من الرصد والتفكيك والتركيب الآتي:

أولاً: إن النص (الوحي) هو مَن أرشد إلى «تكريم الإنسان»، فكيف نحاول نحن نزع «القداسة» عن النص بزعم إعادة الاعتبار للإنسان وتكريمه؟!

ثانياً: إن النص هو مَن أمر أن نقرأه «بالعقل»، فكيف نحاول نحن نزع «الغيبية» عن النص بزعم إعادة الاعتبار للعقل واحترامه؟!

ثالثاً: إن النص هو مَن «أرشد إلى القيم والأخلاق» «وحث على الاعتبار بالوقائع»، فكيف نحاول نحن نزع صفة «المعيارية» عن النص بزعم التصاقه الميكانيكي بالظروف والسياقات والعصر الذي نزل فيه؟

إن الإعداد العقلي في الإسلام مختلفٌ عن مفهوم الإعداد في الفكر غير الإسلامي، لأن الإسلام يعد العقل وسيلةً من وسائل المعرفة وليس الوسيلة الوحيدة؛ نظرًا لعجز العقل وحده عن تفسير كل شيء،

ولذلك اهتم المسلمون بالدليل العقلي والدليل النقلي؛ لأنّ للعقل حدًّا لا يدرك ما بعده، وليس العلم كله مما يدرك بالعقل، لأن المرء حتى ولو لم يكن مسلمًا يؤمن بكثيرٍ من الأشياء الخارجة عن إدراك العقل والحواسّ، وإذا كان الإنسان مطالبًا بمعرفة الله والتفكير في ملكوته عن طريق العقل، فإنّ الدين هو الذي يوجّه هذا العقل، ويحدّد مساره الصحيح، وعلمُ الدين علمٌ غيبيٌّ يصل عن طريق الوحي من الله وليس من غيره.

التقليد.. آفة العقل وتنكر للنعمة الربانية

عندما شرعت بإعداد أفكار هذا المقال خطر في بالي سؤالٌ يحتاج إلى تحرير وإعمال عقلٍ، والسؤال هو: ما الفرق بين التقليد والتأسي؟ وسأترك المجال مفتوحًا أمام القراء الأعزاء للتفكير في الإجابة، ومن رغب في المشاركة أو المداخلة بإبداء رأيه فسيكون في ذلك فائدةٌ مرجوةٌ، على أن نؤجل الإجابة عن هذا السؤال إلى الجزء الأخير من هذا المقال.

وبدايةً يمكن القول إن الإنسان يميل إلى التقليد، لأنه في الأساس يميل إلى التلقائية، فهو لا يرى ضرورةً، ولا يجد الهمّة لأن يشقّ في كل شيءٍ طريقًا جديدًا، أو يبتدع أداةً جديدةً، والإنسان على المستوى العام كائنٌ مُقلِّدٌ، كما يصفه الدكتور (عبد الكريم بكار)، لكنه بسبب ما يملكه من طلاقةٍ روحيةٍ وفكريةٍ، وبسبب ما يملكه من وعيٍ ذاتيٍّ وقدرةٍ على النقد... لا يركن إلى التقليد، وإنما يراوح بين تقليد ما هو سائدٌ وبين الثورة عليه أو تطويره، وهذا يختلف من شخص إلى آخر ومن مجتمع إلى آخر.

والتقليد - في أبسط تعريفٍ له - عبارةٌ عن محاكاة من لا يملك

الخبرة لمن يملكها، أما التقليد الذي عناه القرآن الكريم والسنة النبوية فهو عدم استعمال العقل واللجوء إلى المحاكاة والتقليد، ولا فرق أن يدور التقليد حول نماذج قديمةٍ جدًّا تحدرّت من (الآباء والأجداد ومن قبلهم)، وأخرى جديدة جدًّا (من نعيش معهم في الحاضر)، فكلا النوعين تعطيلٌ للعقل وإن اختلفت ميادينها وأدواتها.

والنصر الحقيقي الذي افتتحت به الحضارة الإسلامية انطلاقها، كان على مستوى النفوس، بتحريرها من حب الدنيا، ومن الطموحات الصغيرة، كما كان على مستوى العقول بتحريكها وتشغيلها، وفك إسارها من أغلال الخرافة والوهم والتقليد.

والمتأمل في إحدى وظائف النبوة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام وهي التزكية، التي تضمنها قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ (الجمعة: 2)، يجد أن من تزكية الإنسان لذاته، تزكيته لعقله، وذلك بتنميته وترشيده وتشغيله، وهذا ما فعله الشرع، حيث عمل على تحريك العقول وإطلاقها من قيودها، ورفع عنها ما كان يعطّلها من أوهامٍ وخرافاتٍ، وطعّمها بقيمه وأحكامه، ثم ترك لها المجال واسعًا لتعمل وتتزكى، وهذا وجهٌ آخر من وجوه حفظ العقل، فحفظ الشريعة للعقل ليس منحصرًا في تحريم

المسكرات والمعاقبة عليها، فكم من عقولٍ ضائعةٍ وهي لم ترَ ولم تعرف مسكرًا قط، ولكن أسكرها الجهل والخمول، والتعطيل والتقليد، وفق تعبير الدكتور (أحمد الريسوني).

وقد أورد الدكتور (سعيد إسماعيل علي) تفسيرًا لعلماء النفس حول جمود الكثيرين على التقليد، وعدم مفارقتهم له، حيث فسروها بأنها (آليةٌ دفاعيةٌ) ضد قلق المسؤولية الذاتية، فهي - أي التقاليد- بما يسبغ عليها من صفات القانون الطبيعي، تتضمن تبريرًا للعجز الذاتي عند الإنسان المقهور، فإذا كان راضخًا أو فاشلًا أو بائسًا، وإذا كان عاجزًا عن تحمل تبعة مصيره والنهوض للتحديات التي تطرحها عليه علاقة القهر وضرورة التحرر منها، فليس الذنب ذنبه، كما يقنع نفسه بذلك، بل يعود ذلك في تصوره إلى نظام الحياة الذي قَسَمَ له دوره وحدد له مكانته، فكأن التمسك بالتقاليد يحمي الإنسان المقهور من مشاعر الخزي الذاتي، المرتبطة بالمهانة التي تتصف بها مكانته الاجتماعية، وفضلا عن ذلك، فإن التمسك بالتقاليد يحمي الإنسان المقهور من مجابهة ذاته، تلك المجابهة التي تقلقه كثيرًا، فيتجه إلى الهروب نحو الخارج، أي الذوبان التقليدي والشائع، وانضواءه تحت المألوف.

والناس ذوو الثقافة المنخفضة يميلون إلى التقليد، بوصفه الأداة التي تجمع أعدادًا كبيرةً من الناس تحت لواءٍ واحدٍ، كما أنهم يميلون

إلى تقديس العادات والتقاليد للسبب نفسه، ويرتاحون للتوحد والعقل الجمعي وثقافة القطيع، ذلك التماهي والتشابه الذي يتيحه العيش في هذا الوسط، الذي تتشابه فيه العقول والآمال.

جاء الإسلام وعقول العرب مقيدةٌ بما توارثوه عن آبائهم، فقال منددًا: أيصحّ الاعتماد على ما يقول هؤلاء الآباء ولو كانوا «لا يعقلون شيئا ولا يهتدون»؟ وبذلك هدم الإسلام قداسة هذه الدعامة (الأخذ عن الآباء دون تمحيص)، ووضع جميع ما أخذه العرب عن آبائهم بطريق التقليد موضع الاختبار، ثم هداهم إلى المنهج الصالح في الوصول إلى الحق وهو البحث الحر والتأمل المطلق في الكون وما فيه من نظامٍ وإبداعٍ.

والقرآن الكريم نبهنا إلى خطورة التقليد في إفساد التفكير وإدراك الأشياء، إذ نراه ينعي على تقليد الإنسان لغيره وجموده على ما كان عليه أسلافه من رأي ومعرفة، قال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ٢٢ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ٢٣﴾ (الزخرف: 22ـ 23)، حيث إن التقليد يفضي إلى تعطيل العقل عن البحث والنظر، أو يكون حجابًا يحجب العقل عن إدراك الحقيقة، ومحاربة القرآن للتقليد، يعبر من جهة أخرى عن

حماية القرآن الكريم للعقل.

وقد ورد في صحيح البخاري قول الرسول صلى الله عليه وسلم: (لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرًا شبرًا، وذراعًا بذراع؛ حتى لو دخلوا جحر ضبٍّ تبعتموهم.. قلنا: يا رسول الله! اليهود والنصارى؟.. قال: فمن؟)، وورد في رواية أخرى: (جحر ضبٍّ خربٍ)، ومما قاله أهل المعرفة في شرح هذا الحديث، أن جحر الضب يجمع بين القذارة الشديدة، والضيق الشديد؛ الأمر الذي لا يدع لعاقل مجالًا لرؤية أي مغرياتٍ للدخول فيه، ولكنه التقليد والتبعية، و(جحر ضب...) هنا، إشارةٌ لعقلية التقليد بلا بينةٍ، والتبعية من غير حجةٍ.

وهذه العقلية الضبيّة (نسبة إلى الضب)، هي العقلية السائدة بين عوام الناس، وهي العقلية التي تركن إلى التقليد، وتهمل النظر والفكر والتدبر والتأمل، فالتقليد داءٌ يؤدي إلى إنكار البديهيات، وكراهة الحقائق، والتحيز والتعصب، والتعلق بكل ما هو شاذٌّ وغريبٌ، والسير خلف كل ناعقٍ.

ولابن الجوزي في كتابه (تلبيس إبليس) تحذيرٌ من التقليد وخطورة ما تؤول إليه النتائج في حال الركون إليه، يقول فيه: «اعلم أن المقلِّد على غير ثقةٍ فيما قلّد فيه، وفي التقليد إبطال منفعة العقل، لأن العقل إنما خلق للتأمل والتدبر، وقبيحٌ بمن أعطي شمعةً يستضيئ بها

أن يطفئها ويمشي في الظلمة، واعلم أن عموم أصحاب المذاهب المقلدين يعظُم في قلوبهم الشخص، فيتبعون قوله من غير تدبرٍ لما قال، وهذا عين الضلال، لأن النظر ينبغي أن يكون إلى القول لا إلى القائل».

ويشبّه الدكتور (مصطفى حجازي) في كتابه (التخلف الاجتماعي، سيكولوجية الإنسان المقهور) العلم مع وجود العقل المقلِّد المتخلف بالقشرة الخارجية الرقيقة التي تسقط بسرعةٍ، فيقول: «إن العلم لا يشكل بالنسبة للعقل المتخلف أكثر من قشرةٍ خارجيةٍ رقيقةٍ يمكن أن تتساقط إذا تعرض هذا العقل للاهتزاز. إن العلم ما زال في ممارسة الكثيرين لا يعدو أن يكون قميصًا أو معطفًا يلبسه الإنسان حين يقرأ كتابًا أو يدخل مختبرًا أو يلقي محاضرةً، ويخلعه في سائر الأوقات، فهناك إذن نوعٌ من الازدواجية في شخصية الإنسان المتخلف بين دور التعليم ودور الإنسان الممارس حياتيًّا، إذا ما زال الانفصال أو الانشطار هو السائد، ففي الحياة اليومية نرى التقليد وانتشار الخرافات والنظرة المتخلفة إلى الوجود بما فيها من اعتباطٍ وتسلطٍ ولا منهجيةٍ هي السائدة، أما في المناسبات العلمية فنرى الواحد من هؤلاء، أو بعضهم، يحلِّق في الأجواء العليا ولو للحظات، فإذا عاد إلى حياته اليومية عاد إلى التقليد والخرافة والأساطير...)، وللحديث بقية.

بعض الناس لا يمثلون أنفسهم، إذ ليسوا سوى صدًى لغيرهم،

فأفكارهم ليست ملكًا لهم، بل هي نتاج أشخاصٍ آخرين، وحياتهم لا تمثل شخصياتهم، فليست سوى تقليدٍ ومحاكاةٍ لحياة بشرٍ آخرين، وحتى عواطفهم ليست نابعةً من صميم ذواتهم، وإنما هي اقتباسٌ من عواطف ونفسيات أناسٍ آخرين، وعندما تبحث عنهم ككيانٍ واحدٍ لا تجدهم كذلك، فهم موزعون ومشتتون بين أناسٍ كثيرين، ولا يمكنك أن تنسبهم لأحدٍ، فهم كما قال الله - تعالى - عن أمثالهم: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ (النساء: 143).

أمثال هؤلاء الذين ذكرناهم يريدون منا أن نعيش الماضي (ذهابًا إليه أو إتيانًا به إلى الحاضر) في جزئياته ويومياته عن طريق المحاكاة والتقليد لا غير، دون فهمٍ ووعيٍ بروح ذلك العصر، بل ويفهمون مقولة الإمام مالك -رحمه الله- على هذا المنوال، تلك المقولة التي يرددونها باستمرارٍ: « لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها» دون أن يدركوا أن أوائل هذه الأمة كانوا معاصرين لزمانهم ويفكرون ويجتهدون في إطار زمانهم ويستنطقون أحكام الدين وينزلونه على واقعهم، بعكس هؤلاء الذين يريدون أن ينزلوا اجتهادات غير عصرهم على عصرهم في تقليدٍ أعمى ومحاكاةٍ ساذجةٍ.

وأمرٌ آخر جديرٌ بالملاحظة في حال هؤلاء، أنهم انتقائيون،

بمعنى أنهم ينتقون من الماضي ما يوافق هواهم فيتمسكون به، ويحثون الناس على تطبيقه، وبالمقابل يتركون ما لا يوافق هواهم، وفي هذا تناقضٌ وانتقائيةٌ فجَّةٌ، فلا هم اللذين امتثلوا لكل التطبيقات الجزئية للماضي، ولا هم اللذين كانوا على مستوى دينهم واجتهدوا من خلاله لعصرهم.

ولعل العرب كانوا من أسبق شعوب الأرض إلى ترسيخ بعض التقاليد النافعة، وإن كانوا في بعض الأحيان أول من يخرج عليها ويؤجلها، ومن ذلك ترسيخ مبدأ «الزمان المحرَّم» و«المكان المحرَّم»، أي زمان السِّلم ومكان السِّلم اللذيْن لا يجوز انتهاكهما، حتى في ظروف الحرب، وذلك في التزامهم بعدم القتال في البيت الحرام، أو في الأشهر الحُرُم. وهو تقليدٌ حميدٌ أقرَّه القرآن وأشاد به الإسلام، ففكرة المحافظة على مساحة سِلمٍ وإنسانيةٍ في أوقات الشقاق السياسي والعسكري فكرةٌ إسلاميةٌ أصيلةٌ، وتقليدٌ عربيٌّ عريقٌ.

ومعرفة تاريخ الآخرين وعلومهم ونظرياتهم وأدبهم ثقافةٌ، أما تقليدهم الأعمى فهو تبعيةٌ، وللإنسان ثلاث طرقٍ ليكون ماهرًا حسن التصرف، طريق التبصر والفكر وهذا هو الأسلم والأصوب، وطريق التقليد وهذا هو الأسهل، ولكنه غير مأمون العاقبة، وطريق التجربة وهذا هو الأكثر مرارةً.

وفي هـذا السـياق قـال ابن خلـدون عن المؤرخـين واسـتيعابهم للأخبار وجمعهـم لهـا، قـال عنهـم ذلـك في عبقريـةٍ نـادرةٍ، موضحًـا عراقـة التقليـد في حيـاة النـاس: « وأدَّوهـا إلينـا (أي الأخبـار) كـما سـمعوها، ولم يلاحظـوا أسـباب الوقائـع والأحـوال ولم يراعوهـا، فالتحقيـق قليـلٌ، والتقليـد في الآدميـين عريـقٌ وسـليلٌ، والتطفـل عـلى الفنون عريـضٌ وطويـلٌ ... فللعُمران طبائـع في أحوالـه، ترجـع إليهـا الأخبـار، وتحمـل عليهـا الروايـات والآثـار ... ثـم إذا تعرضـوا لذكـر الدولـة نسَّـقوا أخبارهـا مسـبقاً ... لا يعترضـون لبدايتهـا، ولا يذكـرون السـبب الـذي رفـع مـن رايتهـا وأظهـر مـن آيتهـا، ولا علَّـة الوقـوف عنـد غايتهـا، فيبقـى الناظـر متطلعًـا بعـد إلى اقتفـاء أحوال مبـادئ الـدول ومراتبهـا، مفتشًـا عـن المقنـع في تباينهـا أو تناسـبها.

وواصـل ابـن خلـدون حديثـه، مبينًـا موقفـه ومـا قـام بـه تجـاه مـا تلقـاه مـن أخبـار عـن حـوادث التاريـخ، فقـال: «ولمـا طالعـت كتـب القـوم، وسـبرت غَـوْرَ الأمـس واليـوم، نبَّهـتُ عَـيْنَ القريحـة مـن سـنة الغَفْلـةِ والنـوم... فأنشـأتُ في التاريـخ كتابًـا، ورفعـت بـه عـن أحـوال الناشـئة مـن الأجيـال حِجَابًـا، وفَصَّلتُـهُ في الأخبـار والاعتبـار بابًـا بابًـا، وأبديـتُ فيـه لأوليـة الـدول والعمـران علـلًا وأسـبابًا، فذهبـت مناحيـه تهذيبًـا، وقربتـه لأفهـام العلـماء والخاصـة تقريبًـا، واخترعتـه مـن بـين المناحـي مذهبًـا عجيبًـا، وطريقـةً مُبْتَدَعَـةً وأسـلوباً، وشرحـت فيـه مـن أحـوال العُمـران

والتمدن، وما يعرض في الاجتماع الإنساني عن العوارض الذاتية ما يُمتعك بعلل الكوائن وأسبابها، ويُعرفك كيف دخل أهل الدول من أبوابها، حتى تنزع من التقليد يدك، وتقف على أحوال من قَبلكَ من الأيام والأجيال وما بعدك).

النقد البناء مَلَكَةٌ راقيةٌ جدًّا، والتقليد مَلَكَةٌ شائعةٌ جدًّا، ومن طبيعة التقليد أنه يحجم فاعلية النصوص، ويجعل مجالات الاهتداء بها تتضاءل يومًا بعد يومٍ، ومن شأن الجهل ترسيخ التقليد، وهذا بدوره يولِّد التشابه، ومن شأن العلم التحفيز على الاجتهاد، وهذا بدوره يولِّد التمايز والاختلاف، وفق تعبير الدكتور (عبد الكريم بكار).

والواقع أن الإبداع والتقليد أمران متعاكسان، حيث لا ينجح الإنسان في أحدهما إلا حين يفشل في الآخر، ومن خصائص العبقري المبدع أنه يمقت التقليد، فهو لا يحب أن يأتي بشيءٍ إلا بعد أن ينفخ فيه من روحه، ويطبعه بطابعه الخاص.

إن الإبداع له وسطه، وأعظم شرطٍ فيه هو عشق المعرفة والتجديد، وكسر جمود التقليد ورتابة الروتين، وإعادة النظر في المسلمات، هل هي فعلًا بديهياتٌ عقليةٌ لا تقبل المراجعة؟ وتحريض ملكة النقد الذاتي، وتوليد روح الدهشة والفضول لرؤية العالم من حولنا دومًا جديدًا ناميًا متطورًا، ورؤية العلم دون حدودٍ، لأنه من

علـم الله الـذي أحـاط بـكل شيء علـمًا، ولـذا يمكـن أن نتسـاءل فنقـول: متـى كان المقلـد قـادرًا عـلى المناقشـة؟! إذ التقليـد تعبـيرٌ عـن العجـز الـذي يدفـع إلى تبنـي الأمـور الجاهـزة.

وكان مـن قدرنـا كمسـلمين، وفـق تعبـير الدكتـور (وليـد سـيف)، أن نـراوح بـين الثنائيـات المتفاصلـة المتطرفـة: بـين اتجـاهٍ تغريبـيٍّ عدمـيٍّ يدعونـا إلى الانسـلاخ عـن هويتنـا الثقافيـة الحضاريـة واستنسـاخ النمـوذج الغـربي، واتجـاهٍ ماضـويٍّ يدعونـا إلى استنسـاخ مـاضي الـذات، وكلا الاتجاهـين يصـدر عـن ذهنيـةٍ متشـابهةٍ وإن بـدا أنهـما متناقضـان، فكلاهمـا تقليـدٌ واستنسـاخٌ: تقليـد مـاضي الـذات، أو تقليـد حـاضر الغـير، والغائـب في الحالـين هـو حـاضر الـذات المسـتقلة الفاعلـة المنتجـة التـي لا تتصـل بالمـاضي إلا بقـدر مـا تمتـد بـه وتفارقـه، ولا تنفتـح عـلى الثقافـات الأخـرى إلا بقـدر مـا تحافـظ عـلى اسـتقلالها وتميزهـا، فتأخـذ في سـياق شروطهـا التاريخيـة، لا في سـياق التبعيـة الماديـة والثقافيـة، فهكـذا أخـذت أوروبـا مـن الحضـارة العربيـة الإسـلامية لنهضتهـا، ولكننـا تنكبنـا الطريـق عندمـا جـاء الـدور علينـا لنسـتفيد مـن الحضـارة الغربيـة.

ويحدثنـا الدكتـور (طـه العلـواني) عـن طبيعـة الأهميـة التـي يوليهـا المقلـدون في دور التقليـد، حيـث إن الأمـر لا يتعلـق بوجـود دليـلٍ أو عـدم وجـوده، لأن الأنظـار المقلِّـدة تتجـه باسـتمرارٍ صـوب قواعـد التقليـد

لتحوطها بالحماية اللازمة؛ لأن أزمتها الفكرية تصور لها أن التقليد هو الضمانة الأكيدة لحماية سائر المقدرات والمقدسات، وعليه فقد أدرك المقلدون أن شيخ الإسلام ابن تيمية لو تُرك وشأنه يراجع التراث الفقهي الإسلامي، ويعود عليه بالنقد والتصحيح بمنهجٍ معرفيٍّ على هدًى من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، فستهتز قواعد التقليد، وتنهار أسسه ويعود الناس إلى مصادر الإسلام الأساسية يتعاملون معها بشكلٍ مباشرٍ، فتتغير العقول وتحدث حالة التجديد الحقيقي، وقد تنهار مؤسساتٌ كثيرةٌ أَلِفَ القوم وجودها، وارتبطت بها وترتبت عليها جملةٌ من المصالح والأوقاف وغيرها، وسيتجاوز الناس تراثًا هائلًا أَلِفَ الكثيرون أن يعيشوا سَدَنةً له، ولا يعرفون وسائل أخرى للعيش من غير طريق هذه السدانة.

وإشارة إلى الصورة المرفقة مع هذا الجزء من المقال، وهي لوحةٌ اسمها «الشرود عن القطيع»، وهي لرسّامٍ بولنديٍّ مغمورٍ اسمه (توماس كوبيرا) والتي قد لا تثير اهتمام المشاهد لها للوهلة الأولى لبساطة توليفها، ولأن شكلها يذكّرنا بعشرات اللوحات التي أَلِفنا رؤيتها في بعض برامج الرسومات، غير أن الرسّام يصوّر فيها بطريقةٍ عميقةٍ ومثيرةٍ للإعجاب، ماهيّة (ثقافة القطيع) وتأثيرها على صناعة الذات.

فالقطيع في اللوحة يأخذ شكل طابورٍ من البشر، ملامحهم زرقاء

كئيبةٌ وجامدةٌ، وهم أشبه ما يكونون بقوالب الثلج، الهيئات المتجمّدة لأفراد القطيع قد تكون كنايةً عن أن نموّهم توقّف عند مرحلةٍ معيّنةٍ، كما أنهم متشابهون وبلا ملامحٍ نتيجة كون أفكارهم وعقلياتهم تقليديةً ومقولبةً ومسبقة الصنع.

لكن هناك شيئًا غريبًا في هذه اللوحة، إنه الشخص المندفع بقوّةٍ إلى خارج القطيع، هذا هو التفصيل الذي يجتذب العين أكثر من سواه في اللوحة. ومن المثير للانتباه أن الرسّام لوّنه بالأحمر، أو ربّما الأصح أن نقول إن لونه يتحوّل شيئًا فشيئًا لى الأحمر؛ لون النار ورمز التحدّي والإصرار والتمرّد.

الرجل إلى أقصى اليمين يظهر أنه زعيم القطيع أو رمز السلطة والسيطرة، ويبدو هذا الشخص وهو يجاهد مع زميله الآخر إلى يمينه للإمساك بالرجل الخارج وإعادته إلى (بيت الطاعة)، أي إلى حظيرة القطيع، والواقع أن فعل الرجل المفارق للقطيع، ليس فقط فعل خروجٍ ولا حتى شرودٌ عن القطيع، حركته حركة انشقاق أو انسلاخ في عنفها وقسوتها، القطيع يشدّه كي يبقى، فيما هو يشقّ طريقه منطلقًا بكلّ قوّةٍ للفكاك والانعتاق من الأسر الذي ضاق به، وشكل القطيع الذي يشبه أمواج البحر ربّما قصد الرسّام أن يرمز به إلى طغيان القطيع وجبروته وقدرته على البطش بكلّ من يحاول الخروج على الأعراف

والتقاليد المستقرّة الجاهزة.

هذه اللوحة عبارةٌ عن دراسةٍ رائعةٍ عن الذاتيّة، وعن بحث الإنسان عن وجهٍ وهويّةٍ في المجتمعات (القطيعية) أو الشمولية، تأمّل قليلًا تعبيرات وجه الرجل، إنها مملوءةٌ بالمعاناة والألم، عيناه تصرخان لكن روحه تقاوم، عينه مثبّتةٌ على شيءٍ يراه من بعيد، قد يكون نجمه الهادي؛ حلمه الذي يريد بلوغه، توقه لأن يصبح إنسانًا مختلفًا ومتميّزًا عن البقيّة.

الهارب من سجن القطيع في اللوحة، ربّما يصحّ فيه وصف أحد الكتّاب، بأنه واحدٌ ممّن قضوا معظم حياتهم وهم يعتقدون بأنهم يدافعون عن أفكارهم وقناعاتهم الخاصّة، ثم اكتشفوا ذات يومٍ أنهم إنما كانوا يدافعون عن أفكارٍ وتصوّراتٍ زرعها في عقولهم أناس آخرون. (5 - 5).

لعل التقليد أهم موردٍ من موارد بناء العقل في بداياته الأولى، فالطفل الصغير ينظر بالكثير من الاهتمام إلى تصرفات أبويه وإخوته وأسرته، ويغلب عليه الاعتقاد بصوابها وخيريتها، مما يجعله يتشرب هذه القيم التي تقوم عليها تلك التصرفات، وتعبر عنها، كما يجعله يصوغ سلوكه وعلاقاته على مثالها، وهذا ما يجعل الأسرة ذات مسؤوليةٍ كبيرةٍ عن مستقبل أبنائها، فما تم غرسه في الماضي، يتم جني ثماره في

الحاضر، وما يتم غرسه في الحاضر، سنجني ثماره في المستقبل، فإن أحسنا فلأنفسنا، وإن أسأنا، فقد (جنت على نفسها براقش).

والتقليد إذا ما كان عن وعيٍ وخاضعًا لمنطقٍ ينسجم مع الأسس والمبادئ العقائدية والمتطلبات الاجتماعية، فدون شكٍّ هو رقيٌّ حضاريٌّ، وهو مظهرٌ من مظاهر التعلم والتعليم، يساهم في رفع مستوى الفهم والاطلاع لدى المقلِّد، كما أكَّد على ذلك الدكتور (علي شريعتي)، وبعبارةٍ أخرى، يمكن القول إن هناك تقليدًا محمودًا، وهو ما كان على بيِّنةٍ وبصيرةٍ، وهو ما يرقى ليكون اتباعًا وقدوةً وتأسيًا بالعظماء والنبلاء، وعلى رأس هؤلاء جميعًا يأتي القدوة والأسوة العظيمة للمسلمين ولكل من يحبون السمو، وهو النبي صلى الله عليه وسلم، الذي حثنا الله – سبحانه وتعالى– على اتخاذه أسوة: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ (الأحزاب: 21)، وفي المقابل هناك التقليد المذموم، الذي قد ينتقل العمل به من الإباحة إلى درجة الكراهة وربما التحريم، وهو ما نطلق عليه (التقليد الأعمى)، الذي ينتزع من الإنسان صفة الإنسانية، ويحوله إلى تابعٍ لغيره ومقلدٍ له بدون دليلٍ ولا برهانٍ.

والتقليد هو أن يحاول الإنسان نقل أو تقليد شيءٍ بحذافيره، وهذا ما يفعله دعاة التغريب وبعض دعاة التقليد من بني قومنا،

ممن يحاولون نقل الماضي المجيد بحذافيره، أما المحاكاة فهي أن تحاول أن تصل إلى جوهر شيءٍ وتولِّد منه ما يتناسب مع وضعنا الحديث، كما عبّر عن ذلك الدكتور (عبد الوهاب المسيري)، وحين دخل المسلمون عصور الجمود والتقهقر، انكمشت لديهم ملكات الإبداع والمبادرة والاجتهاد والثقة بالنفس والمغامرة والإقدام، وساد فيهم حب التقليد والخوف من كل جديدٍ، إلى جانب الشك والسلبية، والرضا بما يقيم الأود، والبقاء على الحد الأدنى من الحياة، ونحن المسلمون أمةٌ تأنف من التقليد، وتعجز عن الاجتهاد... وهذا سر محنتنا الحالية، وقد آن الأوان كي نخرج من هذا المأزق، أما الأنفة من التقليد فهي عزةٌ لا يجوز التنازل عنها، وأما العجز عن الاجتهاد فهو ذلةٌ وضعةٌ يجب أن نتجاوزها.

ومهما يكن لدى المرء من قدراتٍ ومواهب وأساليب يستثمرها لتربية ذاته وتزكيتها، فإنه لا يستغني عن وجود قدوةٍ من بني جنسه تكون له نبراسًا في سيره إلى ربه، فللقدوة الحسنة تأثيرٌ كبيرٌ في تكوين شخصية الفرد وصقلها، حيث إن الإنسان ميالٌ بطبعه إلى التقليد والمحاكاة، وفي التربية الإسلامية يتحول هذا التقليد ويرتقي إلى مفهوم راقٍ يطلق عليه (الاتباع)، وأرقى هذا الاتباع ما كان على بصيرةٍ، يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ

﴿ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ (يوسف: 108). فالاتباع عمليةٌ فكريةٌ يمزج فيها بين الوعي والانتماء والمحاكاة والاعتزاز في ظل البصيرة والحجة.

وقد أخذ (يوجين دوبوا) في كتابه عن الإنسان، أخذ على الأقطار النامية تقليدها المجتمعات الصناعية فقال:» وجميع المجتمعات التي تتأثر بحضارة الغرب تلتزم في الوقت الحاضر (بتوراة التنمية)، وتترنح في دائرةٍ تشبه حلقات الدراويش، ونشيد هذه الدائرة: أنتجوا أكثر! لكي تستهلكوا أكثر! ثم لكي تنتجوا أكثر! والإنسان لا يحتاج أن يكون عالم اجتماعٍ لكي يدرك أن هذه فلسفةٌ مختلةٌ مجنونةٌ، وأن تسارع التنمية لا يمكن أن يستمر طويلًا فضلًا عن الاستمرار الدائم«. والأمر المؤكد، أننا لا نستطيع أن نحارب الغرب ونحن في حضنه وعقلنا عنده، نحمل مقاييسه وقيمه ومعاييره، ونسعى إلى تقليده، واقتفاء آثاره. مما يجعلنا نخوض جزءًا من المعركة و نُهزم في الأجزاء الأخرى، وبهذا يعود فيسلب النصر الذي نحققه في ذلك الجزء، وعيبنا الواضح هو أننا حاولنا تقليده، فلا نحن لحقنا به، ولا نحن أبقينا ثوابتنا قائمةً وراسخةً، بمعنى آخر، لا أرضًا قطعنا ولا ظهرًا أبقينا.

وقد سبق أن طرحنا في الجزء الأول من هذه المقالات سؤالًا عن الفرق بين التقليد والتأسي، وقد وردتني بعض المحاولات للإجابة على

هـذا السـؤال، وقـد وجـدت بينهـا إجابـة لأحـد الأعـزاء الأفاضـل تسـتحق أن تنـشر ضمـن هـذا المقـال، لأنهـا احتـوت عـلى مضامـين تجيـب عـلى مضمـون السـؤال، وإليكـم مـا تفضـل بـه هـذا الأخ العزيـز.

1 التقليـد أساسـه الجهـل الـذي يُضعـف القـوى الإدراكيـة للإنسـان فيغـرم بتقليـد القـوي علميًّـا أو حضاريًّـا أو ماديًّـا، في حـين إن التـأسي قـد يكـون أقـوى مـا يدفـع إليـه هـو البصـيرة والمعرفـة.

2 التـأسي مطلـوبٌ؛ لأن في المتأَسَّـى بـه نمـوذج الكـمال النسـبي الـذي يُتَصَـور مـن المتـأسي -إن أحسـن الأخـذ- أن يصـير في رتـب الكـمال، والتقليـد مذمـومٌ؛ لأن المقلَّـد قـد لا يملـك مـن صفـات الكـمال إلا مـا يتصـوره المقلِّـد وحسـب.

3 التـأسي لا يكـون مـن أجـل ذات الشـخص أو الجهـة المتأسَّـى بهـا، ولكـن للصفـات الحسـنة التـي تعلقـت بـه، أمـا التقليـد فقـد يكـون سـببه الصفـات أو مجـرد الـذات التـي يقـع المقلـد في حبائـل تقليدهـا.

4 التقليـد تبعيـةٌ وضعـفٌ وتـدنٍّ في القـدرات العقليـة، ودنـاءةٌ في النفـس والشـعور، والتـأسي ناتـجٌ عـن رُقـيّ المشـاعر، وترفـع النفـس، ورجاحـةٍ في التفكـير، وزيـادةٍ في العقـل، واسـتقلاليةٍ في صنـع القـرار.

5 التقليـد قـد يشـمل الجانبـين السـلبي والإيجـابي في متابعـة المقلِّـد

للمقَلَّد، لكن التأسي أراه لا يكون إلا في المحاسن والمحابّ؛ ولعلّ - والله أعلم- وصف الأسوة بالحسنة في قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب: 21) جاءت في هذا السياق.

6 وبالتالي فالتقليد في الغالب يكون في مآلاته إلى الانتكاس، بعكس التأسي الذي تحمد عواقبه وتكون مآلاته إلى الحمد والظفر.

الاجتهاد... إعمال للعقل، وشكر للنعمة الربانية

الاجتهاد في الإسلام هو الأصل، أما أوضاع التقليد فلا يتم اللجوء إليها إلا عند الضرورة القصوى، أو العجز التام عن ممارسة الاجتهاد، والمتتبع لأحداث التاريخ يجد أن أوضاع التخلف تدفع الناس إلى تماثلٍ فكريٍّ عجيبٍ لكنه سيءٌ جدًّا، في حين إن أحوال النهوض تحفّز العقول على التنوع في الطرح، والتعددية في الرؤية والاختلاف في التحليل، وهذا شأن العقل البشري حين يمارس الاجتهاد.

والغريب في تعاملنا مع الاجتهاد، أن الكاتب أو العالم أو المفكر إذا ذكر في بحثه أو كتابه شيئًا هو موضع اتفاقٍ أو هو مشهورٌ قلنا: إنه لم يأت بجديدٍ، ولم يستفد مما ذكره شيئًا.... وإذا اجتهد وجاء بشيءٍ غير معروفٍ من قبل فإننا ننكر عليه حق الاجتهاد، ونتحفز لالتقاط

هفواتـه والتشـنيع عليـه، وفـق توصيـف الدكتـور (عبـد الكريـم بـكار).

ودائـرة الاجتهـاد في الإسـلام تضيـق حـين تكثـر النصـوص، وتتسـع حـين تقـل النصـوص، وهـذا في الحقيقـة مـن عظمـة هـذا الديـن وكمالـه، والشريعـة في بعـض الأحيـان تصمـت صمتًـا تامًّـا تجـاه بعـض الأمـور المتغـيرة، فـلا تسـنّ أي تشريـعٍ، وذلـك مـن أجـل إتاحـة الفرصـة الكاملـة لعقولنـا كـي تجتهـد وتُبـدع وتبتكـر.

ولأن المرحلـة السـابقة لا تتسـع للمرحلـة اللاحقـة، فـإن التقـدم الحضـاري والاتسـاع العمـراني الـذي شـهده عـصر التابعـين، جعـل مـا ورثـوه مـن فتـاوى واجتهـاداتٍ ونظـمٍ مـن عـصر الصحابـة رضـوان الله عليهـم غـير قـادرٍ عـلى توفـير الغطـاء الثقـافي لعصرهـم، فـما كان منهـم إلا أن اجتهـدوا واقتبسـوا مـن الأمـم الأخـرى ليواكبـوا تطـورات عصرهـم ومتطلباتـه، وهـذا مـا فعلـه المسـلمون في كل العصـور التاليـة، وهـذا مـا علينـا فعلـه اليـوم عـلى العديـد مـن الصعـد.

إن مشـكلة ادعـاء المعرفـة مـن أكـبر المشـكلات التـي يواجههـا النـاس، وهـي شيءٌ غـير الاجتهـاد في المنطلـق والنتائـج، فالمجتهـد عـن أهليـةٍ يـتردد بـين الأجـر والأجريـن، والمدعـي مسـؤول عـن نتائـج ادعائـه، وليـس لذلـك مـن حـلٍّ إلا ارتقـاء الوعـي العـام الـذي يحـاصر المدعـين في أضيـق الزوايـا، ويلجئهـم إلى أضيـق الطـرق، وحـين تصبـح أخطـاء المـرء

اجتهاديةً، فهذا من أعظم البراهين والدلائل على سموه وارتقائه واتزانه، وهذا ما يريده منا الشارع الحكيم.

والوثوق التام بأفكارنا لا يختلف في نهاية الأمر عن الرفض التام لما لدى غيرنا، وكلاهما غير صحيح، ويتنافى مع جوهر أدبيات الاجتهاد.

إن الوثوقية الزائدة بمعطيات الاجتهاد تشبه الشكوك في مسائل العقائد، حيث تتحول الظنيات هناك إلى قطعيات وعقائد، وتتحول العقائد هنا من ثوابت لتأطير الخلاف إلى مسائل مختلفٍ فيها، وفي هذا السياق يصبح المتقدم على الصف كالمتأخر عنه، حيث يؤدي كل منهما إلى اعوجاجه.

وقد فرّق أئمة الفقه على نحوٍ قاطعٍ بين العقائد التي لا يصلح لها سوى الوثوق التام، وبين معطيات الاجتهاد التي لا يلائمها سوى الترجيح والظن والاحتمال، كما أكّد على ذلك الدكتور (عبد الكريم بكار).

الإسلام ترك مساحاتٍ واسعةً للاجتهاد وإعمال العقل، ولكنه لم يترك الحبل على الغارب، بل وضع حدودًا لا يجوز تجاوزها أو الاقتراب منها، قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ

﴿ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (البقرة: 187)، وقال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ (البقرة: 229)، فهناك حدودٌ تمنع المعتدي كما تنبه المقترب، حتى لا تتحول أمور هذا الدين إلى قضايا سائلةٍ لا حدود لها، فالإسلام يحث العقل على الاجتهاد، ولكنه بالمقابل يرفض الفوضى، ويؤكد على ضرورة أخذ المعلومة من مصدرها، وممن هو مؤهل لإعطائها، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ (الفرقان: 59)، ولذلك لا يمكننا أن نتصور إسلامًا بلا اجتهادٍ، لأن إسلامًا بلا اجتهادٍ يعني إسلامًا بلا عقلٍ.

وحين تخبو جذوة الاجتهاد لدى أمةٍ من الأمم، ويهيمن عليها الجمود، فإنها تنظر إلى محاولات السابقين من رجالاتها نظرة تقديسٍ، عوضًا عن البحث عن طرائق جديدةٍ تحقق عين المقاصد والمصالح التي سعى أسلافهم إلى تحقيقها، وهذا هو الذي حدث للمسلمين مع الأسف الشديد!

إن العالِم المسلم المتخصص والمتمكن من علوم الشريعة خاصةً ومن علوم الطبيعة والحياة عامةً، مطالبٌ بالاجتهاد في شؤون زمانه كما كان أسلافه من أهل العلم مطالبين بالاجتهاد في شؤون زمانهم،

لكـن الانحطـاط الحضـاري يفسـد كل شيء، كـما يشـير إلى ذلـك الدكتـور (عبـد الكريـم بـكار)، ومـن الواضـح في هـذا السـياق أن حركـة العقـل هـي انعـكاسٌ لحركـة اليـد، فحـين تكـون الحيـاة العامـة مـوّارةً بالتغـير والتطـور، فإنهـا تحـث العقـل عـلى الاجتهـاد وتوليـد الأحـكام التـي توفـر الغطـاء الفقهـي وتوفـر الفتـوى لمعالجـة الأوضـاع الجديـدة، وبمعنـى آخـر فـإن (بطالـة اليـد) تيـسر في مسـار واحـدٍ مـع (عطالـة العقـل)، فكلاهمـا سـببٌ ونتيجـةٌ بالنسـبة للآخـر، وتوقـف أحدهمـا ينتـج عنـه توقّـف الآخـر أو تراجعـه، وإعـمال أحدهمـا عـلى الوجـه الأكمـل معنـاه إعـمالٌ للآخـر بالـضرورة، في حركـةٍ لولبيـةٍ صاعـدةٍ، تبنـي الحضـارة الفكريـة والماديـة في آنٍ واحـدٍ.

وليـس بالضـرورة أن يكـون اجتهـاد اللاحـق أكثـر نضجًا من السـابق، وليـس بالـضرورة أيضـا أن يكـون اجتهـاد السـابق أكثـر دقـةً مـن اللاحـق، الأمـر فيـه سـعةٌ، فقـد يكـون الاجتهـاد أو الـرأي الصـادر عـن السـابق أكثـر دقـةً وأليـق بمقـام النصـوص المعصومـة أو غيرهـا، وقـد يكـون الاجتهـاد أو الـرأي الصـادر عـن المتأخـر أكثـر نضجًـا وأكثـر دلالـةً وأقـرب إلى روح النـص، نظـرًا لكونـه قـد اسـتفاد مـن فضـاءاتٍ كثـيرةٍ مـن خـلال مـن سـبقوه، وفي أحيـانٍ أخـرى قـد يكـون اجتهـاد الأولـين والآخريـن ورأيهـم في المسـتوى نفسـه، ولا يمكـن الجـزم لأحدهمـا بالتفـوق والصحـة المطلقـة،

وربما وُفق طرفٌ ثالثٌ للجمع بينهما والخروج باجتهادٍ ورأيٍ ثالثٍ أو رابعٍ أو خامسٍ، فيا بؤس من يحاولون أن يقولبوا الناس على اجتهادٍ واحدٍ! سواء كان هذا الرأي والاجتهاد قديمًا أو حديثًا، وهم بهذا التصرف يحجِّرون واسعًا، ويضيقون ما حقه السعة.

ومدار الأمر في كل هذا أن يُنظر إلى المسألة على أنها قائمةٌ على الاجتهاد والقدرات العقلية، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء للأولين والآخرين على حدٍّ سواءٍ، وليست الصوابية والدقة مقتصرةً على زمنٍ أو جيلٍ دون غيره، والأول قد بذل جهده وأخرج للعالم جواهر وترك المنجم للمتأخر ليأخذ منه، ولو وجد من يؤرخ لتطور الاجتهاد والأفكار وتراجعها لرأينا مدى المساحة التي يمكن أن تكون عليها الاجتهادات على مر العصور، وهذا جهدٌ يحتاج إلى تضحيةٍ وتجردٍ وإنصافٍ.

وحين تدور الفكرة في فلكٍ شخصيٍّ أو مذهبيٍّ، فإنها تفقد جزءًا من مصداقيتها، وجزءًا من جاذبيتها، فالمفكر الحر، لا يضع في مسيرته الاجتهادية اعتباراتٍ غير موضوعية، ولا يخفي جزءًا من الحقيقة من أجل فلانٍ أو علانٍ، كما لا يؤكد على مسألةٍ، ويبالغ في تقريرها لخدمة الحزب الفلاني أو الجماعة الفلانية، فهذا مما يقدح في علميته وموضوعيته.

الاجتهاد فعلٌ فكريٌّ بشريٌّ يمارسه العقل في ضوء الشرع،

وهو قابلٌ للخطأ والصواب، وهذا يعني أنه دائمًا في عصره وفي سائر العصور محلٌ للتقويم والمراجعة والنقد والفحص والاختبار، والتعديل والإلغاء، والإضافة والحذف، وهو محلٌ للفعل الفكري، وهذا بالطبع لا ينال من قدسية القيم في الكتاب الكريم والسنة النبوية وعصمتها، وإنما يؤكد قدسيتها وعصمتها، وأن القيم تبقى هي المرجعية والمعيار الضابط لكل اجتهاد.

والاجتهاد والتجديد حالتان عقليَّتان ونفسيَّتان، توجدهما في الإنسان رؤيته الكليَّة، ووعيه بمقاصد خلقه، وأهداف وجوده، وإدراكه للقراءتين (قراءة القرآن وقراءة الكون)، وضرورة الجمع بينهما، في كل نوعٍ من أنواع المعرفة أو العمل، وكما يقول (البشير الإبراهيمي): كلما كثر النداء بالجهاد قل المجاهدون، وأنا أقول، والكلام للدكتور (طه العلواني): كلما علت الأصوات بالدعوة إلى الاجتهاد قل المجتهدون.

لهذا، فالتجديد والاجتهاد هما عملٌ بنائيٌّ استئنافيٌّ مستمرٌّ لا ينقطع، ولا ينكر جهود السابقين لكنه أيضًا لا يحجر على عقول اللاحقين حتى يحققوا كسبهم، فالله - سبحانه وتعالى- بيّن أن لكل أمةٍ كسبها ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ (البقرة: 134).

وباب الاجتهاد لم يغلق قطّ، وإنما الذي انغلق هو عقول جمهورٍ

من المقلدين وأذهان طائفةٍ من المتعصبين الجامدين على النقول والأقوال مهما ضعفت وكانت مرجوحة، وإن كان هذا التيار العام الذي ساد ولا يزال طيلة عصور الانحطاط في الأمة، فإن استثناءاتٍ كثيرةً شذت عن هذا الاطراد، وعبّرت بين الفينة والأخرى عن ضرورة هذا الأصل وحيويته، وبذلت بالفعل جهدها، وخاضت معارك مع محيط الجمود والاستبداد، بدءًا بالخليفة عمر بن الخطاب إلى جمال الدين الأفغاني، مرورًا بالشافعي والغزالي وابن حزم وابن رشد وابن تيمية وابن القيم وابن خلدون والإمام الشوكاني، وغيرهم.

والاجتهاد لا يزال بابه مفتوحًا لمن تأهل له، وشريعة الله التي جاءت أول الأمر لمحاربة التقليد والمقلدين، واستنهضت الهمم وأيقظت العقول من غفوة الجاهلية، وأمرت بالنظر والتأمل في آيات الله في الكون، ولا يعقل أن تقر هذه الشريعة هذا الحجر على العقول وتمنع من الاجتهاد.

وقد كان لاستقلال الوحي عن التراث فائدةٌ عظيمةٌ، فقد منحنا جرأةً نادرةً في مقاومة استحالة التراث واجتهادات البشر إلى قيودٍ ومحدداتٍ تجعل مستقبلنا ومتطلباته الفكرية والثقافية مرهونةً لدى اجتهاداتٍ ورؤى ماضيةٍ.

وإشكاليةٌ أخرى قد لا تقل خطورةً وأثرًا عن سابقاتها، وهي في

عـدم الإدراك أن قيـم الوحـي الثابتـة في الكتـاب والسـنة هـي مبـادئ عريضةٌ، وسياسـاتٌ عامـةٌ، وقيـمٌ مرجعيـةٌ ضابطـةٌ للمسـيرة، وموجهـاتٌ عامـةٌ، وأن هـذه القيـم والمبـادئ بطبيعـة عمومهـا حمالـة أوجـه، كـما أُثـر عـن عـلي بـن أبي طالـب- رضي الله عنـه- وأن ذلـك يتيـح مجـالًا بـل مجـالاتٍ ليذهـب العقـل في كل السـاحات والميادين، ويبـصر مـن كل الزوايـا، ويناقـش جميـع الاحتـمالات، ذلـك أن القيـم الضابطـة تشـكل إطـارًا مرجعيًّـا ليبقـى للعقـل ميـدان اجتهـاده الفسـيح، ضمـن الوجهـة والانضبـاط بالمنهـج.

لقـد توقـف المسـلمون مرتـين: مـرةً حـين أغلقـوا بـاب الاجتهـاد، وقـد أشرنـا في مقـالٍ سـابقٍ إلى أن توقـف الاجتهـاد لم يكـن إغلاقًـا كـما يتبـادر الى الذهـن، بقـدر مـا كان تحصيـل حاصـلٍ لحالـة الجمـود والتراجـع التـي أصابـت العـالم الإسـلامي في القـرون المتأخـرة، والثانيـة حـين تركـوا الإعـداد الـذي أمـروا بـه كبـابٍ مـن أبـواب الجهـاد، وحـين أغلقـوا بـاب الاجتهـاد توقـف امتـداد العقـل المسـلم وتـم اجـترار آراء السـابقين واجتهاداتهـم الذيـن اجتهـدوا لزمانهـم، واجتهاداتهـم لزمانهـم قـد لا تصلـح لزماننـا، وتركنـا الجهـاد بـكل صـوره فتـم غزونـا واحتلالنـا عسـكريًّا وسياسـيًّا وفكريًّـا واقتصاديًّا.....إلـخ. ولا حـل للأمـة إلا بفتـح هذيـن البابـين، وبـدون بوابـين جهلـةٍ بالطبـع: بـاب الاجتهـاد لحمايـة الأمـة مـن الداخـل، وبـاب الجهـاد بـكل صـوره لحمايـة الأمـة مـن الداخـل والخـارج.

والجهاد قرين الاجتهاد، وعند توقف أحدهما يتوقف أو يتراجع الآخر، فلا جهاد في زمن التقليد والتبعية، ولا اجتهاد في زمن الاحتلال واستلاب الأمة وتمزيقها، إلا في حالة أن يكون الاجتهاد عاملًا مساعدًا على الجهاد لجمع شمل الأمة وتحريرها من الاستعمار، وما الأمة واقعةٌ فيه خير شاهدٍ، فلا اجتهاد ولا جهاد، ومع هذا هناك من يدعو إلى إغلاق هذين البابين المغلقين المعطلين أصلًا، إلا من بعض النسمات الجهادية والاجتهادية هنا أو هناك، كما هو الحال على أرض الرباط.

ولعل ما قاله (مارك توين) عن اليهود، نقلًا عن الدكتور (عبد الوهاب المسيري)، يلخص الموقف منهم بدقة بالغة: اليهود بشرٌ، ولا يمكنني أن أقول ما هو أسوأ من ذلك عنهم، فالاستعمار ظاهرةٌ إنسانيةٌ، والعنصرية ظاهرةٌ إنسانيةٌ، والاستغلال هو الآخر ظاهرةٌ إنسانيةٌ، والشر ظاهرةٌ إنسانيةٌ، بمعنى أنها كلها ظواهر من صميم وجودنا الإنساني، ولذا يمكن رصدها وتفسير معظم جوانبها، والتفسير والفهم يختلفان عن التعاطف والتقبل، وهما ضروريان للتعامل مع الواقع وتغييره، أي أن الاجتهاد ضروريٌّ للجهاد، فبدون الاجتهاد يصبح الجهاد انتحارًا لأنه سيعني أننا نقذف بأنفسنا في نيرانٍ عجائبيةٍ غامضةٍ دون سابق معرفةٍ.

والجهد النظري (الاجتهاد) يختلف تمام الاختلاف عن الجهد

القتالي ضد العدو (الجهاد) فلكل واحدٍ منهما مجاله وأدواته، وإن كان كل واحدٍ منهما يكمل الآخر، ولكننا نعلم أيضًا أن الاجتهاد يسبق الجهاد، وأن الكفاح لا بد أن يسبقه الفهم العميق، وإن اندفاع المرء للجهاد والكفاح، دون اجتهادٍ وبصيرةٍ، سيجعله يحمل السلاح ضد عدوٍّ لا يعرفه، ويفاوض أو ينازل خصمًا لا يفهمه حق الفهم.

وعلينا أن نفرق بين خسائر نتجت من جراء عقبات الطريق وتكاليفه الطبيعية، ومن جراء اجتهادٍ مؤصلٍ قام به من يسوغ له الاجتهاد، وبين خسائر حدثت نتيجة مغامراتٍ غير محسوبةٍ، أو نتيجة ضعفٍ في المعلومات اللازمة أو نتيجة اجتهادٍ لا يستند إلى أية حجةٍ من شرعٍ أو علمٍ أو خبرةٍ، أو من جراء فتاوى من أشخاصٍ هم أبعد شيء عن المجال الذي اجتهدوا فيه.

وعلينا أن ندرك الفارق بين التعصب والالتزام، فالأخير (الالتزام) انحيازٌ إلى قطعياتٍ لا تقبل الجدل، أو مبادئ عامة وقع الإجماع عليها. وبصورةٍ عامةٍ فإن الالتزام يكون بما علا على دوائر الاجتهاد، كما يكون التعصب - عادةً - فيما يقبل النظر والتأمل، وكلما كان عدد الجزئيات التي عزم المتعصب الدفاع عنها كثيرًا كانت مخاطرته أكبر، وكان تعصبه أشد.

والجمع بين الاجتهاد والجهاد ليس بالأمر اليسير كما يظن

البعض، ومن استطاعوا الجمع بين هذين الأمرين نادرون على مسرح التاريخ الإسلامي، في حين نجد من تمكن من أحدهما وصار علمًا فيه من الكثرة بمكانٍ على امتداد التاريخ الإسلامي، ولا يخفى على قارئ التاريخ أن أبرز من جمع بين الاجتهاد والجهاد على حقيقتهما هو قدوة المجتهدين والمجاهدين صلى الله عليه وسلم، ومن بعده خلفاؤه الأربعة رضوان الله عليهم، ثم تتابع السائرون على نفس الطريق وإن قلّ عددهم، ويمكن أن نعد المفكر (علي عزت بيجوفيتش) نموذجًا في عصرنا الحاضر، ممن جمع بين كونه مجتهدا ومجاهدا.

الاجتهاد عمليةٌ عقليةٌ منضبطة المعالم، لها مقوماتها من: جواز الاجتهاد في الشرع والإذن به، وتوافر عنصر المجتهدين ومصدرية الاجتهاد، ووضوح آليات التطبيق، وموضوعات الاجتهاد، وفقه الواقع، وكل هذا يشكل ضمانةً لاستمرار عملية الاجتهاد التي تعبر عن صلاحية الدين الإسلامي لكل الأزمان والأجيال.

والتفكير في مستوياته العليا اجتهاد، ولما أذن الله تعالى لأهل العلم بالاجتهاد أذن لهم بالاختلاف، ومن شأن الجهل ترسيخ التقليد، وهذا بدوره يولّد التشابه، ومن شأن العلم التحفيز على الاجتهاد، وهذا بدوره يولد التمايز والاختلاف، كما أشرنا سابقا.

وكلما أتاح الإنسان لمخالفه أن يعبر عن رأيه أو فكرته بتمامها

قلّص مساحة النزاع بينه وبين مخالفه، فقد يتضح له من خلال اكتمال طرحه وشرحه أنه قريبٌ منه، أو هو معه ولكن خانته العبارة، أو أنه برأيه المخالف في دائرة التأويل والاجتهاد العلمي والموضوعي والقابل للتعدد، وفق تعبير الشيخ (أنور الخضري).

ولأن عقل الإنسان لا يمكنه أن يحيط بكل شيءٍ، وأن محاولة المعرفة الكاملة، والتحكم الكامل، محاولةٌ شيطانيةٌ مستحيلةٌ، مقضيٌّ عليها بالإخفاق، إضافةً إلى كون الواقع الإنساني مركبٌ وثريٌّ، ولا نهاية لهذا التركيب وهذا الثراء، وهذا بدوره سيجعل مفهوم الاجتهاد يحل محل هذه الإحاطة المطلقة والمعرفة الكاملة، كونه المؤهل للمقاربات الأصيلة التي تمنع وهم الإحاطة المطلقة والمعرفة الكاملة – التي يدعيها أصحابها– من التمدد على حساب الاجتهاد.

وقد يكون التقليد مقبولًا ومستساغًا في بداية التعليم للأجيال الناشئة، لاستيعاب مفاهيم البيئة والثقافة وتعلم اللغة، لكن الاستمرار في التقليد يعد كارثةً، ولهذا وعلينا أن نحث ونحض على الدراسة والاجتهاد، لأن العلم الذي يكتسب بالتقليد يذهب بالتقليد.

ووجود الاجتهاد دليلٌ على أن استمرارية التشريع يعد ضرورةً فقهيةً، تقتضيها طبيعة الشرع الذي جعل مصادر التشريع ما بين الثابتة

(النصوص القرآنية والصحيح من الأحاديث النبوية)، والمرنة (كالقياس والاستحسان والمصالح المرسلة)، وأذِن الشرع بالاجتهاد، وأوجب الرجوع لأهل العلم الذين خصهم بوصف أهل الذكر والقدرة على الاستنباط، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ (الأنبياء: 7)، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا﴾ (الفرقان: 59).

وأما حكم الاجتهاد على وجه التفصيل، وفق تعبير الدكتور (عدنان الخطاطبة)، فإنه يختلف بحسب أهلية المجتهد، وحسب نوع المسألة المنظور فيها، وحسب الحاجة إليها، وحسب الوقت، فيكون الاجتهاد واجبًا: إذا كان المجتهد أهلًا للاجتهاد، وكانت المسألة مما يسوغ فيه الاجتهاد، وقد قامت الحاجة الشديدة إلى معرفة الحكم مع ضيق الوقت، ويكون مستحبًّا إذا لم تكن الحاجة قائمةً، وكان الوقت متسعًا مع كون المجتهد أهلًا للاجتهاد، ويكون محرمًا إذا لم يكن المجتهد أهلًا ولم توجد الحاجة لذلك، أو كان أهلًا لكن المسألة مما لا يجوز فيه الاجتهاد؛ بأن كان الحكم منصوصًا فيه، أو مجمعًا عليه، ويكون مكروهًا إذا كان المجتهد أهلًا، وكانت المسألة مما يستبعد وقوعه. ويكون مباحًا إذا كان المجتهد أهلًا، وكانت المسألة مما يمكن وقوعه، وكان الوقت متسعًا.

ومطلوبٌ منَ العقل المسلم أنْ يظلَّ في حركةٍ تردُّديةٍ بين الوحي بوصفه مصدرًا للتَّشريع والتقنين وبين الواقع الذي ستنزل عليه الأحكام وثمرات الاجتهاد، والمجتهد لا يلهث وراء التفسير السريع، ولا يقنع بالسطح والظاهر وما هو قائمٌ، ولا يقبل الصيغ الجاهزة والقوالب الإدراكية الاختزالية، ويرفض التعميم الكاسح، ويسعى جاهدًا ومجتهدًا إلى قبول التعميم المبني على إدراكٍ لتركيبية الواقع، ولهذا فقد استبدل الدكتور المسيري المقولة المشهورة: «لا اجتهاد مع النص» بمقولة: «لا اجتهاد مع النص في كليته أو في مجموعه».

ويمكننا أن نفهم من استبدال الدكتور المسيري بين المقولتين السابقتين، أنه يقصد أنه لا اجتهاد مع النص في حرفيته، بل في مجموعه، أي أن يكون المجتهد (في النص القرآني مثلا)، دارسًا للنص القرآني في مجموعه وترابطه وتركيبيته، أي أن المجتهد في هذا المجال يصدر عن الرؤية القرآنية الكلية، وليس عن مجرد آيةٍ هنا وآيةٍ هناك يختارها صاحب الفتوى أو صاحب الاجتهاد متجاهلًا النصوص الأخرى، وتعد إضافة الدكتور المسيري إضافةً ذكيةً موضحةً للمراد، لمن يدرك خطورة الاجتهادات والفتاوى المرتكزة على نصوصٍ معيّنةٍ والمغفلة لنصوصٍ أخرى ذات علاقةٍ واضحةٍ بالموضوع المُجتَهد أو المُفتى فيه.

الحوار ... ميدان توظيف إمكانيات العقل وترشيدها

يشير مفهوم الحوار لغةً إلى معنى المراجعة بين طرفين أو أكثر حول موضوعٍ محددٍ، حيث تدور كلمة (حَوَرَ) ومشتقاتها في معاجم اللغة العربية في فلك مراجعة الكلام، التجاوب والتخاطب، فقد جاء أن الحَوْر يعني الرجوع عن الشيء وإلى الشيء، فيقال حار إلى الشيء وعنه حَوْراً ومحاراً رجع عنه وإليه، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ (الانشقاق: 14)، أي لن يرجع مبعوثًا يوم القيامة، والمحاورة تشير إلى المجاوبة، فالتحاور هو التجاوب، فتقول: كلَّمتهُ فما أحار إليَّ جواباً وما رجع إليَّ حويراً ولا حَويرةً، أي: ما ردَّ جواباً، واستحاره أي استنطقه، وهم يتحاورون أي يتراجعون الكلام. والمحاورةُ: مراجعة المنطق والكلام في المخاطبة. (د. سعيد إسماعيل صيني: الحوار وأشكاله وعناصره).

ويمكن القول بأن الحوار هو أسلوبٌ مهمٌ من أساليب التواصل المنظم بين الناس، يتم من خلاله عرض القضايا ومراجعة الكلام حولها من قبل طرفين أو أكثر للوصول إلى اتفاقٍ أو توافقٍ عليها، أو لتوليد مفهومٍ أو فكرٍ جديدٍ يكون موضع اتفاق، على ألا يكون الحوار جدلًا عقيمًا، ولا ينطوي على نوازع الخصومة والمِراء، أو مغالبةٍ

وخصومةٍ فكريةٍ أو سياسيةٍ لا طائل منها، ولا فرق في ذلك بين المعنى اللغوي والاصطلاحي في التداول لكلمة الحوار.

ولذلك فإن مِن سمات الحوار تداول الكلام بين أطرافٍ متكافئةٍ تجمعها رغبةٌ مشتركةٌ في التفاهم، فلا يستأثر بالحديث طرفٌ دون الآخر، كما يتسع مفهوم الحوار ليستوعب كل أنواع التخاطب وأساليبه ، سواءً كانت منبعثةً من خلافٍ بين المتحاورين أو من غير خلافٍ، وتشكُّل أطراف الحوار، ووجود موضوعٍ أو موضوعاتٍ محددةٍ وجادةٍ، الركنان الأساسيان للحوار، إذ لابد للحوار من وجود طرفين أو أكثر يتحاوران في موضوعٍ معينٍ بغرض التوصل إلى اتفاقٍ أو توافقٍ أو لأي أغراضٍ أو أهدافٍ أخرى. (د. أشواق غليس).

نحن بحاجةٍ إلى الحوار، هكذا يؤكد الدكتور (عبد الكريم بكار)، حيث إن كل واحدٍ من المتحاورَين لا يحرص على إقناع صاحبه برأيه ليتبناه، ويعدل عن رأيه الخاص، وإنما يقوم بإضاءة نقطةٍ مظلمةٍ، وتوضيح قضيةٍ غامضةٍ لا يراها المحاور الآخر على الوجه الصحيح، وهكذا يكون الحوار هادئًا باردًا وديًّا، لأنه يستهدف النفع المتبادل، وليس الاستيلاء والاستحواذ، ومن المهم أن نجعل الحوار أساسًا في حياتنا، ولا سيما في المجال التربوي، إذ لا ينبغي أن نطلب من الحوار أن يوصلنا إلى الاتفاق مع من نحاوره، ولكن نأمل منه أن يوفر لنا أساسًا

مقنعًا للاختلاف وتعدد وجهات النظر، ومن الواضح أننا كثيرًا ما نزعم أننا نتحاور، ولكننا في الحقيقة ننظِّر، ولذا فإننا نكدر قلوبنا، ولا ننير عقولنا.

الحوار أو المحاورة، محاولةٌ من طرفي الحديث أو أحدهما أن يقنع الآخر بمنطقه ووجهة نظره، وإذن فالمحاورة في أغلب صورها مباراةٌ أو منافسةٌ أداتها اللسان، وهي في كل أحوالها تمثل موقف المحاور ورأيه وحجته، وفوق ذلك فإنها تمثل شخصيته ومقدار عقله وتفكيره، فأما شخصيته فتبدو من خلال طريقته في المحاورة، ومدى حرصه على بلوغ هدفه، ومدى قدرته على محاصرة منافسه أو خصمه، وأما عقله وتفكيره فيبدو من خلال حجته التي يسوقها ومن خلال ترتيب أفكاره وتسلسل المقدمات والنتائج في حديثه.

إن الله جلت قدرته، مثلما جعل لكل منا بصمة إصبعٍ يستحيل أن تتطابق مع بصمة إنسانٍ آخر، مما جعل مهمة التحقيق الجنائي ميسرةً إلى حدٍّ كبيرٍ، قد جعل لكل منا كذلك عقلًا هو الآخر له بصمته الفكرية التي يصعب أن تتطابق تمامًا في كل شيءٍ مع بصمة فكر عقلٍ آخر، مما يؤسس لاختلاف وجهات النظر، ويشرع لتبادل الحوار، والحوار هو المظلة الكبيرة التي انضوت تحتها صورٌ وأشكالٌ متعددةٌ لتنمية الفكر وإثارة العقل، سواءً عن طريق استخدام القياس، أو السؤال.

والشعوب العاقلة تتعلم بالحوار والجدال، والشعوب الجاهلة تتعلم بالهمجية والاقتتال... لكن التعلُّم أمرٌ لا مناص منه في كل الأحوال، وفي أيام الصراعات يصبح الحديث عن تحكيم العقل والركون إلى الحوار والتسامح أقرب إلى اللامعقول، لأن الكل مشدودٌ إلى المعركة، وغبار هذه المعركة يسد الآفاق عن رؤية أي مخرجٍ.

وتشجيع الفكر، من خلال الحوار والنقاش وتعزيزهما، يطلق مادتي (الأندروفين والدوبامين) في الدماغ، وهما ينشطان الفكر التحليلي النقدي، ويساعدان على زيادة تكوين الشبكات العصبية في الدماغ، من خلال نمو الشجيرات التي تربط الخلايا العصبية، وكلما زادت التحديات الذهنية، ومعها النشاط المعرفي نمت هذه الشجيرات، وتوفرت للدماغ شبكاتٌ عصبيةٌ جديدةٌ تزيد من كفاءته، والعقل الجيد ليس ثابتًا مكتملًا إما أن نملكه أو لا نملكه، وإنما هو شيءٌ قابلٌ للتنمية والنضج التدريجي والتراكمي، عن طريق التأمل والنظر والحوار وتغذيته بالمعارف المختلفة.

ويتسم الحوار بوجود هدفٍ أو أهدافٍ محددةٍ يسعى المتحاورون إلى الوصول إليها وتحقيقها، فليس المقصود من الحوار المثمر والهادف المجابهة وإفحام طرفٍ من أطرافه في محاولةٍ للظهور على الخصم وتعجيزه، وإنما المقصود منه الوصول إلى شيءٍ متفقٍ عليه مسبقًا بين

طرفي الحوار، ولذلك يعد تحديد الهدف من الحوار والاتفاق عليه أحد عوامل إنجاح الحوار، والركن الأساسي لعملية الحوار، لأن الهدف هو الغاية التي يريد المتحاورون الوصول إليها من هذه العملية.

ونتفق مع مَن يرى بأن الاختلاف المحمود هو الاختلاف الطبيعي القائم على التعدد والتنوع، الذي يرجع إلى اختلاف المدارك والعقول، والاختلاف الهادف والصادق الملتزم بآدابه، وكذلك الاختلاف الذي أملاه الحق دون أن يكون للنفس منه حظٌّ أو للهوى عليه سلطانٌ، بحيث لا يتحول الأمر إلى تعصبٍ للآراء والأفكار والمذاهب والأحزاب بالباطل، فمثل هذا النوع من الاختلاف يمكن وصفه اختلاف رحمةٍ واختلاف سعةٍ.

نجاح التعايش مرهونٌ بصوت العقلاء الذين يقدمون لغة الحوار الهادئ الهادف الذي يحقق المنشود، ويصل لهدفه بيسرٍ وسهولةٍ، كما أن إخفاق التعايش مرهونٌ بصوت الحمقى الذين لا يعرفون إلا مصالحهم فقط، حين يعتمدون لغة القوة والعنف بشكلٍ كبيرٍ في إداراتهم ومطابخ قراراتهم، وإذا كان البعض يظن أن الحوار هو وسيلة الضعفاء، وأن من يلجأ إليه يعد عاجزًا، وأن القوي القادر هو من يفرض ما يريد وليس في حاجة إلى حوارٍ ما دام يملك القدرة والنفوذ، ومن يملك مثل هذه الرؤية عليه أن يدرك أن هذا الفهم الذي آمن به

يعد تصورًا قاصرًا وفهمًا خاطئًا، وإلا لما كنا نطالع في القرآن الكريم حوار الله (القوي المتين)، مع الملائكة ومع إبليس، ولما فهمنا مغزى المساحة الواسعة التي أفردها الله لحوار الأنبياء مع أقوامهم.

إن الحوار قوةٌ ناعمةٌ لمن يدرك أثرها، ولا يدرك أُثر الحوار إلا الفطناء، أما سواهم فيرون أن الحوار مضيعةٌ للوقت، وأن السيف أصدق إنباءً من الكتب. أو كما قال الشاعر مقدمًا الرأي على الشجاعة:

الرَأيُ قَبلَ شَجاعَةِ الشُجعانِ ... هُوَ أَوَّلٌ وَهِيَ المَحَلُّ الثاني

فَإِذا هُما اِجتَمَعا لِنَفسٍ حُرَّةٍ ... بَلَغَت مِنَ العَلياءِ كُلَّ مَكانِ

وَلَرُبَّما طَعَنَ الفَتى أَقرانَهُ ... بِالرَأيِ قَبلَ تَطاعُنِ الأَقرانِ

لَولا العُقولُ لَكانَ أَدنى ضَيغَمٍ ... أَدنى إِلى شَرَفٍ مِنَ الإِنسانِ

وَلَمَا تَفاضَلَتِ النُفوسُ وَدَبَّرَت ... أَيدي الكُماةِ عَوالِيَ المُرّانِ

ولأن الحوار استجابةٌ مشتركةٌ لنداء الحق الذي يعتقده كل طرفٍ، ورجوعٌ إلى الصواب الذي يظنه كل مُدّعٍ، وبحثٌ عن الحقيقة كما يتصورها كل زاعمٍ، بقناعةٍ عقليةٍ واطمئنانٍ قلبيٍّ، وجب اختيار الأسلوب الأقدر على تحقيق الاستماع الكامل؛ إذ الاستجابة ثمرة الاستماع، بمعنى آخر، فإن لكل طرفٍ قناعاتٌ راسخةٌ، قد تكون

صحيحةً أو فاسدةً، والمحاور الذكي هو من يستطيع التعامل مع حقول الألغام الخاطئة لدى الطرف الآخر، ويحاول نزع (صاعقها) حتى لا تنفجر بصاحبها وبه، وبعبارةٍ أدق، إمّا أن نتحاور ونعيش سويًّا عقلاء، أو نتقاطع ونتفاصل ونموت سويًّا جهلاء وحمقى.

والحوار بالحكمة بيانٌ للحق ورجوعٌ إلى ما أوجبته الحجة بعد قيامها، كما يقول الدكتور (أحمد الفراك)، وحاجة العقل البشري إلى وضوح الحجة، وإلى تحليل الدليل وتقليب النظر فيه للتأكد من صحته، خصلةٌ إيجابيةٌ تهيئ المحل للحوار الناقد النزيه الكاشف للحقائق، الحريص على معرفة الحق الذي لا يحابي أحدا، وهذا يقتضي أن يتفتح عقل المخاطَب لاستيعاب ما عند المخاطِب من غير مكابرةٍ في الحق ولا عنادٍ، من خلال الاحتكام إلى سلطان الدليل برهانيًّا أو حجاجيًّا أو تجريبيًّا، والحوار والتفاكر والتناظر والمناقشة تغربل الحقيقة، وتخصِّب العقل، وتشحذ الفاعلية، وتحصحص الحق، حتى لا يصح في النهاية إلا الصحيح، ولا يثبت إلا الصواب.

وسباق العقول سباقٌ لا يتوقف، وقدرة الإنسان على الجدل والأخذ والرد لا تنتهي، والحوار يحتاج إلى ثقافةٍ واسعةٍ ومعرفةٍ بالعصر وبطرائق الحجاج المنتج، ويحتاج إلى دُربةٍ، وسعة أفقٍ، وتقبلٍ لاختيارات الناس والتعايش معها، إن الحلّ في مثل هذه الحالات إما الارتقاء

بالمتدين أو إغلاق فضاء السؤال! وفق تعبير الدكتور (جاسم سلطان).

وقد استخدم القرآن في حواره المنهج العقلي الذي لا يمنع وجود مساحاتٍ من تفاصيل العقيدة، لا تخضع للرؤية وللحساب، كما في الامتداد اللانهائي لله، أو التصور الواضح لحقيقة الله، ولكنه ينطلق بالإنسان في هذه المجالات، إلى أن يؤمن بكل ما يقوده الدليل إليه، إمكانًا واستحالةً، ثم يقف حيث يقف به الدليل دون أن يتجاوزه في قليلٍ أو كثيرٍ، ولذا فإن القرآن لا يكلف الإنسان أن يؤمن قبل أن يفهم ما يعتقد، لأنه لا معنى للإيمان بما لم يفهمه على أساس أن الإيمان نورٌ والجهل ظلمةٌ، وبناءً على هذا يمكن القول وفق تعبير الدكتور (محمد حسين فضل الله) أن الإسلام انطلق في حياة الناس من قاعدةٍ أصيلةٍ في تفكيره، وهي اعتبار العقل قوةً صالحةً للحكم على الأشياء وميزانًا لصحة القضايا وفسادها، ولا نحتاج إلى التذكير بما سبق أن أشرنا إليه عند الحديث عن علاقة العقل بالنقل في مقالاتٍ سابقةٍ.

إن وأد الأفكار واغتيال الآراء وإخماد الحوارات البناءة، هي أفعالٌ نمطيةٌ يتنطع بها البعض بحجة الحفاظ على عقول الناس، ولكن العقول لم تخلق لكي تُرعى مثلما تُرعى البهائم، بل خُلقت لكي تنطلق وتفكر وتضج فيها أصوات الأفكار المتعاركة، والعقول ساحات حربٍ خصبةٌ للأفكار، وكلما تعاركت الأفكار في داخل الإنسان عمَّ

السلام خارجه، وكلما جمد العقل وركن إلى التبعية والتقليد عمَّ الدمار والخراب، وكأننا أمام معادلةٍ واضحةٍ محسومة النتائج، إما أن تعمل العقول بصدقٍ وإخلاصٍ كي يحل السلام، وإما أن تجنح إلى الكسل والجمود والتقليد فيكون الخراب والهدم هو سيد الموقف.

وفي خضم الحوار الحر والواسع والعميق تبلورت العقلانية الإسلامية؛ لأنّ العقل والمنطق كانا السلاح الأول والأكثر فعالية في عرض الإسلام والدفاع عن عقائده، وفي الرد على مقالات المخالفين ومقولاتهم... لقد انتقل الإسلام ـ بهذه الفتوحات العسكرية ـ إلى بيئاتٍ ذات ثقافاتٍ وأبنيةٍ فكريةٍ مركّبةٍ، وأصبح يواجه ويحاور أقواما لهم مواريث فلسفية، ومؤسساتٌ لاهوتيةٌ ... ولم يعد كما كان الحال في شبه الجزيرة العربية، يتعامل مع بيئةٍ بسيطةٍ تكفي في الإجابة على أسئلتها وعلامات استفهامها ظواهر النصوص، والمنطق الفطري، كما أشار إلى ذلك الدكتور (محمد عمارة).

اقترن الحوار في مجمل النصوص الشرعية بالعقل والتشريع مما يمنحه معنى ساميًا في سياق تحديد مدلوله، ذلك أن الحوار العاقل هو الذي يقوم على أساسٍ راسخٍ ويهدف إلى غايةٍ نبيلةٍ هي القبول بمبدأ المراجعة الذي يتجاوز الرجوع عن الخطأ إلى مراجعة الموقف برمته إذا اقتضت لوازم الحقيقة هذه المراجعة وصولًا إلى جلاء الحق وتوضيح الحقيقة.

فالحوار قيمةٌ من قيم الحضارة الإسلامية المستندة إلى مبادئ الدين الحنيف وتعاليمه السمحاء، بوصفه تعبيرًا عن أبرز سمات الشخصية الإسلامية السوية وهي سمة التسامح والمرونة في التفكير، فالحوار لا يكون إلا بالتي هي أحسن، أي أحسن الوسائل وأقوم الأساليب وأقوم الطرق.

وبهذا المعنى، فإن الحوار قوةٌ وسلاحٌ من أسلحة السجال الثقافي، وهو وسيلةٌ ناجعةٌ من وسائل الدفاع عن كيان الأمة وعقيدتها ومنهجها لغرض تبليغ رسالتها وإظهار حقيقتها وإسماع صوتها وكسب الأنصار لها، وفق الصيغة والمنهج الذي يأمر به القرآن الكريم.

إن مقومات الحوار تتطلب توفر أركانه متمثلةً بطرفي الحوار، وبالقضية التي يجرى الحوار بشأنها، كما أن مقومات الحوار تتطلب جملةً من القواعد والأسس التي تتعلق بالعملية الحوارية من خلال اعتمادها على العقل والمنطق، وعدم التناقض في المقدمات والأدلة، وإنصاف الخصم وحمايته، وتحديد الغاية والهدف، وتوفير الأجواء الهادئة والمناسبة للتفكير السليم، وإعداد خطةٍ علميةٍ مبرمجةٍ للشكل والمضمون، وبهذا نضمن حوارًا علميًّا ومنطقيًّا يعتمد الحجة والدليل، ويقدم الفكرة بعقليةٍ مرنةٍ وأسلوبٍ واضحٍ بعيدًا عن الأهواء والشهوات.

وقد ثبت جليًّا أن أقرب طريق للوصول إلى الحق هو الحوار العقلي

المجرد عن اتباع الهوى، ولا بد لهذا الحوار من منهجيةٍ علميةٍ تعتمد أسس البحث العلمي وقواعده في الوصول إلى الحقيقة، ومعالجة أسباب الخلاف وتسويته، وفق تعبير الدكتور (عبد الستار الهيتي).

ولا بد لمن يدخل في عملية الحوار أن يعد نفسه إعدادًا تامًّا لتقبل النتائج التي يؤول إليها الحوار ويهيئ عقله للاقتناع بها، لأن رفض النتائج وعدم تقبلها يقلب الحوار إلى جدلٍ عقيمٍ لا يراد منه سوى المماحكة وعرض القدرات الكلامية وتقديم المزايدات الجدلية المقيتة التي تعود بالحوار إلى ما يناقض هدفه وغايته.

كما يؤدي عدم تقبل النتائج إلى استمراء ما يسمى بخصلة الثرثرة، التي يمكن عدّها من الناحية الفسيولوجية مرضًا عقليًّا لا يخدم الجوانب المعرفية، فإذا استطاع المحاور إيقاف الثرثار عند حده وإبقاءه في صلب موضوع المحاورة أمكنه المواصلة معه، أما إذا أخفق في الحد من الثرثرة فإن الحوار معه يصبح غير مجدٍ، فمواصلة الحوار في مثل هذا الجو يشبه (حوار الطرشان)، الذي يعني أن الكل يتحدث والكل لا يسمع، ومن ثم الدوران في حلقةٍ مفرغةٍ تستنزف الجهد والوقت دون الوصول إلى نتائج.

إن أهم ما يعيب التعليم التلقيني الشائع في مدارسنا هو

افتقاده للمناقشة والحوار والتشارك المعرفي والعملي، فالطلاب ينحصر دورهم في الحفظ والتذكر وإعادة الجمل التي سمعوها دون أن يتعمقوا في مضمونها، وليس من هدفٍ لهذا التعليم التلقيني سوى تعويد الطلاب أسلوب التذكر الميكانيكي لمحتوى الدرس وتحويلهم إلى آنيةٍ فارغةٍ يصب فيها المعلم كلماته، ولا شك أن هناك من ينجح بهذه الوسيلة في أن يصبح جامعًا للمعلومات أو (كتالوجًا) لها، ولكن تبقى الحقيقة العارية وهي أن الذي خزّن هو عقل الإنسان الذي حرم بهذا الأسلوب غير الموفق في التعلم من فرص الإبداع والتطوير، إذ كيف للإنسان أن يمارس وجوده الحق دون أن يتساءل ودون أن يعمل، كما عبّر عن ذلك (باولو فرايري) في كتابه (تعليم المقهورين).

وفي المقابل نجد أن السياسة التعليمية التي سار عليها الإمام الشوكاني، والمتمثلة في تعدد المشائخ الذين أخذ عنهم وتتلمذ على أيديهم، قد جنبته مساوئ التلقي عن أستاذٍ واحدٍ، والتي أخطرها ذوبان شخصيته في شخصية الشيخ، فيصير له مقلّدًا، ولآرائه متعصّبًا، ذلك أن تعدّد الشيوخ يكسب الطالب العقلية التحليلية النقدية بفضل المقارنة بين دروسهم في منهجي الإلقاء والتحليل.

والحاصل أن كثرة الشيوخ يوجد حوارًا مستورًا في عقل الطالب ابتداءً، ثم حوارًا مكشوفًا بينه وبين شيوخه، فيتلقّى من كل شيخٍ جوابًا

على سؤاله مختلفًا عن غيره، ومثل هذا الحوار والنقاش يفتق ذهن الطالب، ويوسع أفقه، ويثري معرفته، ويكشف عن زوايا النقص عند هذا، ونقاط القوة عند ذاك، فيتسع عقل الطالب وقلبه لاتفاق الناس واختلافهم فلا يحجر واسعًا، ولا يضيق صدره بمخالفيه ما دام رأيه يرتكز على دليلٍ ناهضٍ تقوم به الحجة.

والحق أن (البصمة الخاصة) لا تقتصر على (الإصبع)، فلعقل الانسان كذلك بصمةٌ خاصةٌ تجعل ما ينتجه غير متطابقٍ دائمًا وكليًّا مع ما ينتجه آخرون، ومثلما أوجب اختلاف القدرات والاستعدادات على البشر أن يتعاونوا ويتآزروا فإن اختلاف العقول يوجب الحوار وتبادل الرأي والمناقشة.

العقل والقلب... من يقود من؟

طلبت المذيعة «آمال فهمي» من الشيخ (محمد الغزالي) - رحمه الله- في برنامجها الشهير: (على الناصية)؛ أن يُعرّف الإسلام بكلمتين، فقال: «الإسلام بإيجاز: عقلٌ يرفض الخرافة، وقلبٌ يرفض الرذيلة».

وكأن المعادلة التي ينجو بها الإنسان، هي معادلةٌ تجمع بين عقلٍ يبحث عن الدليل ليقتنع، وقلبٍ يتطلع إلى اليقين ليطمئن، فإذا غاب العقل حضرت الخرافة، وإذا غاب القلب امتد بساط التصحر والجفاف.

وقد سبق وأشرنا في كتابٍ لنا سابق بعنوان: (اطمئنان قلبٍ)، إلى مقاربةٍ حول بنية القلب، كما أشرنا في أولى مقالات (إعمال العقل) إلى مقاربةٍ أخرى حول بنية العقل، وأشرنا -كذلك- إلى طبيعة العلاقة بين العقل والقلب، ولا نريد تكرار ما سبق الإشارة إليه، ومن أراد أن يطالع ذلك فليعد إلى الكتاب والمقالات، ونحن في هذا المقال والمقالين التاليين سنتعامل مع المقاربة التي تشير إلى كون العقل والقلب مَلَكتين بينهما جسور التقاءٍ، وبينهما أيضًا نقاط افتراقٍ، ولكننا نؤمن ونؤكد أن هناك تكاملًا وتناغمًا وانسجامًا بين العقل والقلب - وكذا بقية

المَلَكات - في حالة السواء الإنساني، التي يمكن تسميتها بالفطرة التي فطر الله الناس عليها.

فلأمرٍ ما، اختار الإسلام ـ كلمة الإيمان ـ للدلالة على العقيدة، فالإيمان يباشر العقل والقلب معًا ويربط الفكر بالوجدان ربطًا وثيقًا، فليس الأمر قضية قناعةٍ فكريةٍ باردةٍ، وليس الأمر قضية دفعةٍ عاطفيةٍ خاويةٍ من القناعة العقلية، بل هو الالتحام الكامل بين الجانبين حيث يصعب التمييز بينهما، فالإيمان الذي في قلب الإنسان، يجعل عقله أكثر حدةً، ومعصمه أكثر قوةً.

والإيمان كما يقول الدكتور (أحمد خيري العمري) له عنوانان وليس عنوانًا واحدًا: هو يعمل في العقل، ثم يذهب ليستريح في القلب، فيطمئن القلب وتخشع الجوارح، ولو أن عقل الإنسان كان صالحًا للاستخدام لجعل قلبه يقف في مكانه الصحيح منذ البداية، ولو أن تفكيره يعمل بالطريقة المطلوبة لما سكب عصارة عمره وزهرة شبابه في التفاهات، ولو أن قدميه احترمتا تكوينهما قليلًا لما سارتا إلى ما تجهلان نهايته، ولو أن يديه في حالةٍ صحيةٍ جيدةٍ لما اقترفتا كل تلك الحماقات... ولكن ما الذي تعمله -أحيانًا- لإنسانٍ عقل قلبه، او قلب عقله شديد السماكة؟

والمتأمل في أسلوب القرآن الرائع، ومزاياه الفريدة في تربية المرء

على الإيمان بوحدانية الله وباليوم الآخر، يجد أنه يفرض الإقناع العقلي مقترنًا بإثارة العواطف والانفعالات الإنسانية، فهو بذلك يربي العقل والعاطفة جميعًا، متمشيًا مع فطرة الإنسان في البساطة وعدم التكلف، وطرق باب العقل مع القلب مباشرة، وفق تعبير الدكتور (عبد الرحمن النحلاوي).

ومن خصائص أسلوب القرآن الكريم، أنه يخاطب العقل والقلب معًا، ويجمع الحق والجمال، فكأنه بهذا يحيط بالنفس الإنسانية من جانبيها معًا، الجانب المعرفي (العقل)، والجانب الوجداني (القلب)، في وحدةٍ كليةٍ لا تترك لصاحبها مهربًا، فيذعن للحق، ويلزم الصراط المستقيم.

والتربية الإسلامية ترفض النظرة الأحادية أو الثنائية عن الطبيعة الإنسانية، تلك النظرة التي تقوم على التمييز بين العقل والجسم، وسمو العقل على الجسم، وإنما هي تنظر إلى الإنسان نظرةً متكاملةً تشمل كل جوانب الشخصية فهي تربيةٌ للجسم، وتربيةٌ للنفس والعقل معا، ولا شك أن كل جانبٍ من هذه الجوانب يؤثر في الآخر ويتأثر به، وقديمًا قالوا: العقل السليم في الجسم السليم، كما أن في الجسد مضغةً إذا صلحت صلح الجسم، وإذا فسدت فسد الجسم ألا وهي القلب، كما في حديث النبي صلى الله عليه وسلم. والجسم هو مطية النفس والعقل في

أداء الواجبات وتنفيذ الأوامر الشرعية.

والحكمة هي كما نقول (عصير مركز) ـ إذا صح التشبيه ـ للخبرة البشرية والتأمل العقلي والبصر القلبي، والحيرة هي: قلبٌ يريد، وعقلٌ لا يريد. و»منبر الإنسانية قلبها الصامت لا عقلها الثرثار». كما يقول (جبران خليل جبران)، الذي لا يمكن التسليم له بهذه العبارة على إطلاقها.

وحين يشتاق القلب فإنه يقنع العقل بحججه وإن كانت واهيةً، وعلى العقل في حال أسندنا له القيادة أن يتحمل المسؤولية، وأن يرشّد عواطف القلب الوجدانية وأن يحاول عقلنتها وجعلها أكثر منطقيةً، ولا يعني ذلك أن يلغيها أو يستبدلها كليًّا، بمعنى آخر على العقل أن يبقي (الحبل السري) الذي يصله بالقلب، وأن يستقبل ما يأتي منه لا على أنها أوامر مرسلةٌ للتنفيذ، ولكن على أساس أنها مقترحاتٌ قابلةٌ للنقاش والتعديل، وكل واحدٍ منا أدرى بعقله وقلبه وكيفية إدارة الحوار البناء بينهما، وعلى الإنسان أن يسعى جهده لإبقاء هذه المَلَكات عاملةً بحكمةً، وإلا:

- فإن القلب إذا مات ضاعت الرحمة.
- والعقل إذا مات ضاعت الحكمة.

■ والضمير إذا مات ضاع كل شيءٍ

وقد جاءت كلمة القلب في القرآن الكريم في 132 موضعًا، حيث جاءت مفردةً وجمعًا، وهذا يبين ما للقلب من أهميةٍ كمكونٍ رئيسٍ من مكونات طبيعة الإنسان وحقيقته، والعقل ليس آلةً بل وظيفةً، كما أشرنا في بداية هذه المقالات، ولم ترد كلمة عقل في القرآن إلا بمعنى عمل أو فعل (لا يعقلون)، فهو عمليةٌ وليس آلةً، وقد أطلق القرآن الكريم على ذلك اسم القلب أو الفؤاد أو اللب... والوظيفة المنوطة بها هي عقلنة كل ما يدور حول الإنسان أو ما يجري في حياته، أو ربط السبب بالنتيجة، فالعقل يعد وظيفةً لكسب سائر المهارات.

ويحدثنا حجة الإسلام (أبو حامد الغزالي) عن الأبعاد التي يمكن أن تمتد إليها وظيفة العقل والقلب، بحيث تتعدى ما يُدرَك بالحواس إلى ما هو أبعد من ذلك فيقول: «البصيرة الباطنة أقوى من البصر الظاهر، والقلب أشد إدراكًا من العين، وجمال المعاني المُدرَكة بالعقل أعظم من جمال الصورة الظاهرة للأبصار».

ولعل مما يعزز القيمة التربوية للسنة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، أنها تمثل منهجًا متوازنًا، كما يؤكد على ذلك الدكتور (يوسف القرضاوي)، هذا المنهج يوازن بين الروح والجسد، بين العقل والقلب، بين الدنيا والآخرة، بين المثال والواقع، بين النظر

والعمل، بين الغيب والشهادة، بين الحرية والمسؤولية، بين الفردية والجماعية، بين الاتباع والابتداع، ولهذا كان صلى الله عليه وسلم إذا لمح من بعض أصحابه جنوحًا إلى الإفراط أو التفريط، ردهم بقوةٍ إلى الوسط، وحذرهم من مغبة الغلو والتقصير، وهذه الوسطية الإسلامية هي وسطيةٌ يتقبلها العقل الصريح، ويطمئن لها القلب السليم.

«إن التعادل الذي كان قائمًا حتى مطلع القرن التاسع عشر -إلى حد ما- بين قوة العقل وقوة القلب، أي بين نشاط التفكير ونشاط الإيمان قد اختل منذ ذلك الوقت، بتوالي انتصارات العلم العقلي واستمرار جمود الجانب الديني، فالعلم الذي هو وليد العقل ضاعف قوته وجدد وسائله ووسع آفاق معرفته، في حين إن الدين وما تفرع عنه من تدينٍ، الذي يعد ذا صلةٍ مباشرة بالقلب، بقي محصورًا في أفقه، ولم يكتشف منابع جديدةً في أعماق القلب الإنساني، تتعادل مع تلك العوالم الجديدة التي اكتشفها العقل البشري». وإذا كان (توفيق الحكيم) بهذا قد شخّص الداء على مستوى الحضارة الغربية، إلا أننا يمكن أن نستشف من كلامه أن هذا الداء لم يقتصر على الحضارة الغربية، بل تعداها إلى غيرها من الحضارات، ومن ذلك الحضارة الإسلامية، على درجاتٍ متفاوتةٍ ومختلفةٍ عمّا تم من انفصالٍ بين العلم والإيمان في الحضارة الغربية، ولذلك يمكن القول إن الحضارة الإسلامية في

حاجةٍ ماسةٍ إلى إعادة الوئام بين العلم والإيمان، أي بين العقل والقلب، ويرى الحكيم في «تعادليته» أن العلاج قائمٌ على أساسٍ من تعادل القلب مع العقل (العلم والإيمان)، فهذا التعادل بين القوتين يكفل سلامة الشخصية الإنسانية. (توفيق الحكيم، التعادلية مع الإسلام).

والإيمان في حقيقته ومضمونه الرباني، وليد عقلٍ ذكيٍّ باحثٍ، والدين ليس إلا عقلًا مؤمنًا، وقلبًا استقرت إلى الله وجهته، وفق تعبير الشيخ (محمد الغزالي)، وليس الذِكر - مثلًا- كقربةٍ من القربات العبادية، حركة لسانٍ مع غفلة قلبٍ وشرود ذهنٍ، بل الذكر وعيٌ مكتملٌ وهو من وظائف العقل قبل كل شيءٍ.

وفي أحيانٍ كثيرةٍ، لا يتوقف كفر الكافر المعاند على ضعف الأدلة أو قلتها، لأن الأمر لم يعد متعلقًا بسرد الأدلة والبراهين العقلية، بل صار الأمر مرتبطًا بعناد القلب وكِبره وغروره، قال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ (النمل: 14)، كما تأتي آيةٌ قرآنيةٌ أخرى توضح طبيعة بعض من يحرص أهل الخير على إيمانهم وهدايتهم ولكنهم لن يصبحوا كذلك، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (يوسف: 103)، فهؤلاء لن يؤمنوا مهما قدمت لهم من أدلةٍ وعرضت لهم من براهين، لأن القضية لديهم ليست متعلقةً بالعقل، بقدر تعلقها بذلك القلب

المتكبر الذي يأبى الإقرار بالحقيقة، وحين يتكبر القلب يتعطل العقل، وحين يتخلى القلب عن إنسانيته تصبح كل جريمةٍ لها ما يبررها، ولا يوجد أفجر ولا أقسى من العقل حين ينفرد بالقرار بعيدًا عن القلب، والتحدي الأكبر أمام حَمَلة الرسالة الإنسانية، أن يعملوا على استرداد قلب البشرية الضائع في دهاليز البراغماتية العاتية، وفق تعبير الأستاذ (فايز الكندري).

هناك ترابطٌ بين العقل والقلب، فإذا كان العقل مركز التدبير، فالقلب هو مركز المشاعر والعواطف، والإنسان كما أنه كائنٌ عاقلٌ، فإنه كائنٌ عاطفيٌّ، وفق توصيف الدكتور (جاسم سلطان) له، بل هو كائنٌ تحركه العاطفة، والعقل ضابطٌ لها، وكل فكرةٍ لا تحركها العاطفة هي فكرةٌ ساكنةٌ لا تتحول إلى سلوكٍ، فكم من الأفكار الكبيرة لا يتحرك لها أصحابها ولا يتحمسون لها بسبب انصراف عواطفهم عنها.

والوجدان عاملٌ مهمٌّ في الحياة الخلقية، فبقوة الوجدان وسموه تعرف قيمة النفوس، والعاطفة أجدى في الأخلاق وأبلغ أثرًا من العقل، لأن الإنسان يسير إلى الخير بقلبه، والإرادة وإن كان زمامها هو العقل فإن الكمال يقتضي منها أن تذكيها العاطفة ويحركها الوجدان، فالعقل ليس له نفوذٌ ولا يمكنه أن يقاوم وحده الأهواء والأغراض، ولا بد له من طلب المساعدة والنجدة من القلب.

والعواطف والأحاسيس في كثيرٍ من أحوالها، تتسم بالفوضى والغموض والقليل من العقلانية والمنطقية، فللقلب حين يحب ويبغض ويفرح ويحزن أسبابه التي لا تحتاج إلى الموافقة عليها من عقلٍ أو خِبرةٍ أو تجربةٍ. ولدى المراهق -مثلا-، كما يخبرنا الدكتور (بكار)، نوعٌ من الفوران العاطفي، ولهذا فإن علينا أن نصل إلى قلبه قبل عقله، حتى نستطيع أن نَفهَمه، ومن ثم نُفهِمه كيف يدير عاطفته باقتدار، والعواطف تشتد وتثور، وتتقلب على نحوٍ متطرفٍ، كلما كانت ثقافة صاحبها ضحلةً ومحدودةً، لأن الإملاق المعرفي يهمِّش سلطة العقل على ضبط العواطف وتوجيهها.

والقلب وإن لم يكن بمقدور الإنسان التحكم السريع والمباشر بوظائفه، إلا أنه ليس بمعزلٍ عن العين حين تبصر، والأذن حين تسمع، واللسان حين يهمس، واليد حين تمتد، والرجل حين تمشي، والعقل حين يفكر أو يحلل أو يتخيل، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ (الإسراء: 36). وكلما لَمَّعَ الإنسان جدار قلبه وعقله، انطبعت فيه كل الحقائق والجمالات.

والإسلام في تعامله مع الكائن البشري لا يأخذه أجزاءً وتفاريق، فلا يأخذ روحه ويترك جسمه وعقله، ولا يأخذ عالمه النظري ويترك

عالم الواقع، ولا يأخذ ضميره ويترك سلوكه، ولا يتركه حالةً مبهمةً لا تفصح عن الطريق، بل يأخذه ككلٍّ متكاملٍ، فلا يَغفل عن جارحةٍ من جوارحه، ولا يُهمل حالةً من حالاته.

ولا شيء يزيد الإيمان ويرسخه في قلب المؤمن كالتفكر في الأدلة العقلية الدالة عليه، والإسلام لا يعرض منهجه بمعزلٍ عن دلائله، لأنه يدرك أن أحكامه وأخباره لا قيمة لها دون براهينه، قال تعالى: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ (النمل: 64).

والتوحيد يجعل العلم الذي يكتسبه الإنسان عن طريق عقله وتجاربه، وسيلةً للتقوى والارتباط بالله تعالى مصدر كل علمٍ وخيرٍ ومعرفةٍ، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ (فاطر: 28)، فلا يستطيع الغرور بالمعرفة والعلم أن يستولي على قلب الموحد أو عقله أو كليهما.

وقد آمن (محمد إقبال) بأن أساس الالتزام الإسلامي هو المحبة القلبية الواهلة، لا المعرفة الذهنية الباردة، فالحب أعمق أثرًا من العلم، والقلب أقوى سلطانًا من العقل، وما يحتاجه المسلم للوصول إلى مقام عز العبودية أكثر بكثير من مجرد المعرفة الذهنية بالإسلام، أو الإلمام التاريخي بأيام المسلمين.

المعرفة الحقة تقوم على إدراك الغيب، جنبًا إلى جنبٍ مع إدراك الحسّ، وعمل القلب لا بد أن يلازم عمل العقل في هذا الإدراك، ولهذا فإن الإدراك العقلي إن لم يدعم بعمل القلب المتولد من الرغبة الصادقة والمجاهدة الخالصة فإن حلاوة الإيمان ونوره لا تستقران في النفس، إنها تبرق مع العقل ثم تخمد، ويغطيها النسيان ما لم تستمر يقظة القلب، والإيمان طائرٌ له جناحان: العقل أحدهما والقلب ثانيهما ولا يطير بغيرهما.

إن الإنسان إما أن يعيش بحسّه وحينئذٍ يجد نفسه محكومًا بهذا الوجود المادي، خاضعًا له، لا يزيد علمه عنه، فيستعبد نفسه للضرورات، وتظلم نفسه بالجهل، قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٢٣ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ (الجاثية: 23 ـ 24)، وإما أن يعيش بقلبه فيحكم الوجود ويدركه على حقيقته ويتحرر من سلطان الضرورة وتشرق نفسه بالعلم.

فمن اتصف قلبه بصفات نفسه بحيث صار قلبه نفسًا محضةً، فغلبت عليه آفات الشهوات ودواعي الهوى، فهذا حظه من السماع

كحظ البهائم، لا يسمع إلا دعاءً ونداءً، ومن اتصفت نفسه بصفات قلبه فصارت نفسه قلبًا فغلبت عليه المعرفة والمحبة والعقل واللب وعشق صفات الكمال، فقد استنارت نفسه بنور القلب واطمأنت إلى ربها وقرت عينها بعبوديته، وصار نعيمها في قربه وحبه، وهناك من له منزلةٌ بين المنزلتين، فإن صادفه وقت دولة القلب كان حظه منه قويًّا، وإن صادفه وقت دولة النفس كان ضعيفًا، وفق تعبير الدكتور (يوسف كمال).

لقد أيقنت (والكلام هنا للأستاذ فايز الكندري) أن الحضارة الحقيقية هي حضارة الإنسان وليست حضارة البنيان، إنها في إقامة العدل وليست في إقامة ناطحات السحاب، إنها في تحقيق السعادة القلبية وليست في تحقيق الرفاهية المادية، فالظلم لن ينتهي من حياة البشر بوصولهم إلى القمر، وأي حضارةٍ تلك التي يقيمها عقلٌ مخترعٌ، يضع في أيدينا الآيفون، ويدمر بيوتنا بالقنابل؟ فهل ستجني منه البشرية خيرًا أم سيجني هو عليها وبالًا؟ أترك الإجابة لمخيلتكم.

لقد جاء وقتٌ كان الذي يحتل البحار يحتل العالم، والآن جاء وقتٌ صار الذي يحتل الفضاء يحتل العالم، حيث أصبحت الأقمار الصناعية تدخل ببثها كل بيتٍ، بل كل جيبٍ ويدٍ، فتسيطر على عقل الإنسان وقلبه.

والمطلع على كتاب (الفردوس الأرضي)، للدكتور (عبد الوهاب المسيري) يجد فيه لوحةً فكريةً بديعةً، لوحة امتزج فيها الفكر والشعور، في لحظة تحولٍ إنسانيةٍ فذةٍ، إنه كتابٌ كتِب بنور القلب ومداد العقل معًا.

وفي المقابل نجد (محمد إقبال) الذي خَبِرَ الحضارة الغربية، وامتلأت نفسه بعبق حضارته الإسلامية يضع معادلة النهوض الإسلامي، وهي معادلةٌ تستحق التوقف عندها، فقد بيَّن أن المجتمع الإسلامي المعاصر لن ينهض إلا «بقلبٍ شرقيٍّ وعقلٍ غربيٍّ»، فالقلب الشرقي تعبيرٌ عن الأصالة والمبدئية، والعقل الغربي تعبيرٌ عن الفاعلية والروح العملية.

بمعنى آخر، إن كان المطلوب إبراز حداثةٍ جديدةٍ ناهضةٍ، فلتكن هذه الحداثة الجديدة حداثةً تتبنى العلم والتكنولوجيا، ولا تضرب بالقيم أو بالغائية الإنسانية عرض الحائط، حداثة تحيي العقل ولا تميت القلب، تنمي وجودنا المادي ولا تنكر الأبعاد الروحية لهذا الوجود، تعيش الحاضر دون أن تنكر التراث أو تتنكر له، وهي مسألةٌ ولا شك صعبةٌ، ولكنها ليست مستحيلةً، وفق تصور الدكتور المسيري.

سيظل الجسد البشري بمجموعه معجزة الله على الأرض، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وسيبقى التوازن بين مكونات هذا الجسد

هو الجهد الذي على البشرية أن تنجح فيه، ويأتي في مقدمة هذا الجهد، التوازن بين قلوبنا وعقولنا، بحيث نجعلهما سويًّا البوصلة التي توجهنا حين نقف أمام اختياراتنا في الحياة، وألا نسعى إلى رمي آدميتنا من علو شاهقٍ دون رحمةٍ، أو نكون مثل تماثيل الشمع المعروضة التي لا روح فيها، فجميلٌ أحيانًا أن نتعامل بفطرتنا السوية، دون أن نوصل شراييننا بأجهزة (الريموت كونترول) التي اجتاحت دروبنا، وصارت تتحكم في عقولنا وقلوبنا.

وبناءً على ما سبق، قد تتساءلون في نهاية هذه المقالات، عن إجابة السؤال من يقود من؟ هل العقل يقود القلب أم العكس هو الصحيح؟ والإجابة عن هذا السؤال ليست إجابةً قاطعةً وصارمةً للحكم لأحد المَلَكتين بالقيادة، فكما لاحظتم من خلال المقالات كنا نسعى إلى طرح مقارباتٍ، نقدم العقل مرةً، لتأتي لحظةٌ تاليةٌ نقدم فيها القلب، وهكذا، فالعلاقة بين العقل والقلب ليست علاقة قائدٍ ومقودٍ أو تابعٍ ومتبوعٍ، بل هي علاقة توازنٍ، يكون فيها العقل قائدًا إذا تطلب الأمر، ولكنه يسلم القيادة للقلب (التداول السلمي للقيادة)، في عمليةٍ ديناميكيةٍ يعيشها الإنسان في لحظات حياته، فعند جيشان عواطف القلب وطغيان وجدانه، فإن على العقل أن يتسلم زمام المبادرة ليعيد الأمور إلى نصابها وسويتها، وعندما يجنح العقل ويتناسى إنسانية الإنسان ويتعامل معه

كـشيءٍ مـاديٍّ، عندهـا عـلى القلـب أن يتسـلم عجلـة القيـادة ليعيـد العقـل إلى حظـيرة الإنسـانية، ويمكننـا أن نقـول هنـا بـكل تأكيـد ووضـوح: إن شـقاء الإنسـان كفـردٍ والانسـانية كمجمـوعٍ هـي في تسـلم أحـد الملَكتـين لزمـام القيـادة واسـتبعاد الأخـرى، وإن سـعادة الانسـان فـردًا وحضـارةً هـي في حالـة التـوازن، التـي لـن تبقـى وتترسـخ إلا إذا بُـذل في سـبيل ترسـيخها جهـودٌ كبـيرةٌ، وهـذا مـا نتمنـاه.

قدرة الإنسان على قيادة نفسه والإمساك بزمامها من الصعوبة بمكانٍ، ويحتاج الأمر إلى مِراسٍ كثيرٍ، ونوعٍ من الصلابة والجدية في التعامل مع جنوح النفس، وقليلون هم من يستطيعون ذلك، ومع هذا لا يستطيعونه في كل الأوقات.

فالنفسُ كالطفلِ إن تتركه شبَّ على

حبّ الرضاع وإن تفطمْه ينفطمِ

ومن لم يعرف طبعه، أثَّر ذلك في اختيار عقله، كما يقول الأستاذ (عبد العزيز الطريفي)، وتوهم الحق معه، وربما عاند وكابر، لأنه يجد توافقًا بين طبعه والأدلة التي انتقاها واستجلبها من بين أضدادها، كالنفس المطبوعة على الكرم تدفع العقل إلى النظر والإمساك بأدلة فضل الكرم من القرآن الكريم والحديث الشريف والآثار وأشعار الأمم وأمثالهم وقصصهم وحكاياتهم، حتى تكون مشبَّعةً متشرِّبةً من تأييد ما تميل إليه في طبعها، حتى يكون بذلها بنفسٍ طيبةٍ، وعقلٍ مؤيدٍ، وعكسها النفس المطبوعة على البخل، تدفع العقل على استجلاب وضبط أدلة الإمساك والاقتصاد، والادخار والتوفير والتدبير!

والنفوس المطبوعة على القسوة والشدة تدفع العقول على معرفة أدلة الإقدام والحزم، والمواجهة والمقاتلة، والميل إلى الأشد من الأمرين عند الاختيار فقط، وتتجاهل ما عدا ذلك، لأن للطبع نهمًا وفيه متعةٌ لا تتحقق إلا بما يوافقها من الأقوال والأفعال.

وبعض النفوس المطبوعة على اللين والرِّقة والضعف تميل إلى السكينة والمتعة واللذة، فتستجلب بالعقل الأدلة الدالة على السلامة والأمن، وفضل العافية والعفو عن الناس، والمسامحة والرفق، والصبر على الأذى، وتتغافل عما عدا ذلك، ومهما بغى عليها الظلمة، فلا تنتصر ولا تنتصف، وهذا الطبع ينشأ أيضا في النفوس التي غرقت في النعيم والملذات حتى تمكنت منها، فتتألم من فقدها، فتحب المحافظة عليها بكل دليلٍ وتعليلٍ.

وضعف النفس وشدة ميلها تضعف قدرة العقل على مغالبتها، فتتصرف النفس باسم العقل، وأكثر اختيارات العقول التي تكون وقت عدم استقرار النفس وتوازنها، تكون عاقبتها ندامةً وملامةً، ومن أراد التوسع حول طبيعة النفس، فعليه مطالعة كتابنا (قد أفلح من زكّاها)، وهو منشورٌ على الشبكة، وفيه ما يغطي بعض الجوانب، التي لسنا في حاجةٍ إلى تكرارها هنا.

وهناك ثلاثة تياراتٍ حول طبيعة النفس الإنسانية، أوردها

الدكتور (علي أسعد وطفة) في كتابه (أصول التربية):

التيار الأول: يرى أصحاب هذا التيار أن الطبيعة الإنسانية (شريرةً)، وأن الشر كامنٌ في جِبِلَّة الإنسان وفطرته، فالشر أصيلٌ في الإنسان كما يرى (جون لوكوتوماس وهوبز)، وهما من أبرز رواد هذا الاتجاه.

التيار الثاني: يرون أن الطبيعة الإنسانية (خيّرةً)، وأن الخير كامنٌ فيها بالضرورة، ويتزعم هذا الاتجاه (ابن طفيل الأندلسي)، و(جان جاك روسو)، و(كونفوشيوس).

التيار الثالث: يرون أن الخير والشر كلاهما ماثلٌ في الطبيعة الإنسانية، وأن الأخلاق تصدر عن الصراع بين قوى الخير والشر الكامنة في الطبيعة الإنسانية، فالشر يكمن في الرغبات والشهوات في حين يكمن الخير في العقل والروح والضمير الإنساني، والخير مرهونٌ بانتصار العقل على الشهوة في الوقت الذي يرتهن فيه الشر بانتصار الشهوة على العقل، والخير والشر يأتيان من طبيعة الصراع بين الجوانب الخيِّرة والشريرة أي: بين العقل والشهوة. ويعد (أفلاطون) من أبرز ممثلي هذا الاتجاه الثنائي للصراع بين الفطرتين قديما.

في حين تضع التربية الإسلامية نظريتها التربوية، منطلقةً من قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ٨ قَدْ أَفْلَحَ

﴿مَن زَكَّىٰهَا وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ (الشمس من 7 إلى 10). ومن وجهةٍ تربويةٍ إسلاميةٍ فإن الإنسان كائنٌ أخلاقيٌّ قبل أن يوصف بأنه كائنٌ عاقلٌ، حيث إن الإنسان مكوَّنٌ من الجسم والروح، وما العقل والنفس إلا مظاهر للروح، كما أن الهوى والغرائز مظاهر للنفس والجسم، في حين إن المميز الحقيقي للإنسان هو الخُلق، وفق تعبير الدكتور (طه عبد الرحمن).

إن العقل والهوى ضدان، والهوى متعلقٌ بالنفس وأكثر التصاقًا بها، فقرين العقل التوفيق، إن كان عقلًا مسددًا، وقرين الهوى الخذلان، والنفس طالبةٌ لهذا وذاك، فبأيهما ظفرت كانت في حزبه، حسب وصف (الجاحظ)، وإذا غلب الطبع فالنفس تقود العقل.

ولو تأملنا حالة النطق أو الكلام عند الإنسان لوجدنا أنه يتطلب تفكيرًا، لأن الكلام تعبيرٌ مقصودٌ عما يجول في النفس، وما اللسان إلا مُعبِّرٌ عما يجول في داخل الإنسان، ومن هنا فإن العاقل هو الذي يفكر ثم يتكلم، وهذا يعني أن عقله يسبق لسانه، أما الأحمق فإنه يندفع في الكلام دون تفكيرٍ، أي أنه ينطق قبل أن يفكر، وهذا يعني أن لسانه يسبق عقله فيعرضه ذلك للمهالك.

إن الولادة الحقيقية للإنسان هي عند ظهور أثره، الذي يحدثه

على ظهر الأرض، وفي عمق الحياة التي يعيشها، ولا يكون هذا الأثر قويًّا ومؤثرًا إلا إذا كان ذلك الإنسان قوي النفس لامع العقل، شديد العزم، متدفق الإرادة، حينئذٍ يكون الإنسان عظيمًا وعبقريًّا وفاعلًا في الحياة.

والمعالجة العقلية والفكرية لقضايانا شيءٌ لابد منه، ولا يغني عنه أي شيءٍ آخر، لكن علينا أن نعترف أن مشكلاتنا ليست فكريةً وحضاريةً فحسب، وإنما هي نفسيةٌ أيضًا، بل إننا نقول إن كل أشكال الهزائم التي يمكن أن تصيب أمةً ما تظل محدودة التأثير مالم يتولد عنها هزائم نفسيةٌ تزعزع ثقتها بنفسها ومبادئها، وتسد آفاق النصر والتقدم في وجهها، وفي مواجهة الهزيمة النفسية سيكون إحداث انتفاضةٍ نفسيةٍ جزءًا مهمًّا من الحل، كما يقترح الدكتور (عبد الكريم بكار)؛ فالتنظير العقلاني منفردًا قد يؤدي إلى الإحباط، ومن ثم فإن بث روح الاستعلاء بالإيمان والخصوصية الرسالية والمنجزات التاريخية يظل مهمًّا لتجديد الروح ونفض اليأس والقنوط عن نفوس المسلمين.

لا يوجد في الطبائع النفسية أشد ضررًا على العقل من الكبر، فالكبر يوجِدُ في النفس نشوةً بمقدارها تمنع العقل من تحصيل العلم أو الانتفاع منه، وكل شعورٍ يعتري النفس يجعلها فوق حقيقتها فذلك هو الكبر، وفق تعبير الشيخ (عبد العزيز الطريفي)، والكبر عاملٌ نفسيٌّ شديد الشراسة، وعندما يستقر في النفس، فإنه لا يلغي عمل

العقـل وحسـب، وإنـما يلغـي كل فضيلـةٍ في هـذا الإنسـان.

ومـن أسـباب العنـاد: إمـا اعتـدادٌ بـرأيٍ، أو هـوى في النفـس، أو مركب نقـصٍ في الـذات، أو قلـة علـمٍ في العقـل، أو عمـى في القلـب، وهـذا يقودنـا إلى القـول بـأن إدراك الطبيعـة العلويـة للخطـاب القـرآني واستشـعار الحـق الكامـن فيـه يتطلـب تجريـد النفـس مـن أهوائهـا والإنصـات إلى معانيـه بقلـوبٍ منفتحـةٍ صادقـةٍ في بحثهـا عـن الحـق، ويسـتدعي إعـمال العقـل لفهـم النصـوص واسـتنباط المعـاني وتحديـد الـدلالات.

والإنسـان يعلـو عـلى نفسـه بعقلـه، كـما يقـول (عبـاس العقـاد)، ويعلـو عـلى عقلـه بروحـه، فيتصـل مـن جانـب النفـس بقـوى الشـهوات ودوافـع الحيـاة الجسـدية، ويتصـل مـن جانـب الـروح بعـالم البقـاء وسر الوجـود الدائـم، وعلمـه عنـد الله، وحـق العقـل أن يـدرك مـا وسـعه مـن جانبـه المحـدود، ولكنـه لا يـدرك الحقيقـة كلهـا مـن جانبهـا المطلـق إلا بالإيـمان والإلهـام، الـذي هـو هِبـة الله لمـن اصطفاهـم مـن خلقـه، قـال تعـالى: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (البقـرة: 269).

وهنـاك في كل ظاهـرةٍ مـن ظواهـر الحيـاة حسـنها وسـيئها، خيرهـا وشرهـا، درجـاتٌ مـن الاعتـدال، ومـن فوقـه تطـرفٌ وغلـوٌّ، ومـن تحتـه تطـرفٌ وغلـوٌّ، وهـذا الأمـر لا مفـر منـه، وهـو ينبـع مـن عوامـل وشروطٍ

كثيرةٍ، بعضه ينبع من مستوى الاستيعاب العقلي والنفسي، فهناك من اتسم بسعة الأفق، وهناك من اتسم بضيق الأفق، وهناك من اتسم بسعة الأفق بلا حدودٍ حتى وصل درجة اللامبالاة، أو التمييع واستباحة كل شيءٍ، وهناك من اتسم بضيق الأفق حابسًا نفسه بين أسوارٍ عاليةٍ وضمن مسافاتٍ ضيقةٍ، فيتشدد حتى يصبح كالمُنبتّ، لا ظهرًا أبقى ولا أرضًا قطع.

وضبط النفس في مرحلة التربية سيهيئها في المستقبل ألا تستبد إذا وصلت إلى إقامة النظام، وألا تتصارع بين بعضها، أو إذا حدث أن يكون عاقلًا فلا ينكل بعضهم ببعض، فالعقل يملك إمكانياتٍ هائلةً لإنتاج الأردية الفكرية التي تغطي على الشهوات النفسية وتضفي عليها -تبعًا لذلك- المعقولية والمشروعية، وقد جهل الوعاظ طبيعة العقل البشري، ونسوا أن الإنسان يندفع بما تمليه عليه ظروفه النفسية والاجتماعية ثم يطلي اندفاعه هذا بطلاء الدين والفضيلة، والمرء حين يتقدم في السن، كما يؤكد على ذلك الدكتور (عبد الكريم بكار)، يفقد من مرونته العقلية والنفسية على مقدار ما يفقد من مرونته الجسمية، حيث يكون التيبس هو سيد الموقف.

والله سبحانه وتعالى أعطى الناس أجسامًا تشتهي، وعقولًا تفكر، وأرواحًا تحلّق ساعيةً إلى النور، وزودهم كذلك بالقدرة على التوفيق

بين هذه جميعا، ولن يقوم التوفيق بينها إلا بشيءٍ من الصراع، شيءٍ من التدافع، كما سماه الأستاذ (محمد قطب)، حتى لنستطيع أن نقول: إنه لولا دفع هذه القوى بعضها ببعض لفسدت النفس، وكأننا أمام عالم يكون فيه التدافع مدخلًا للتوازن والتوافق، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحج: 40).

بيد أن «جمال الروح في حياة الإنسان يهوِّن عليه المصائب، وجمال النفس يسهل عليه المطالب، وجمال العقل يحقق له المكاسب، وجمال الشكل يسبب له -في بعض الأحيان- المتاعب». حسب قول شيخ الإسلام ابن تيمية.

إنما النفسُ كالزجاجةِ والعقلُ سراجٌ ورحمة اللهِ زيتُ

فإذا أشرقت فإنك حيٌّ وإذا أظلمت فإنك مَيتُ.

وللشيخ (عبد العزيز الطريفي) نظراتٌ ثاقبةٌ وعميقةٌ حول النفس وعلاقتها بالعقل، في كتابه (الفصل بين النفس والعقل)، وهو من الكتب الرائدة في هذا المجال، ويحمل إشاراتٍ كثيرةً تستحق التأمل والنظر فيها بتمعنٍ، وسأختار بعضًا من الاقتباسات من هذا الكتاب

مع بعض التصرف والإضافة والتعليق، وأنصح بقراءة هذا الكتاب، وهو موجودٌ على الشبكة.

ولنبدأ هذه الاقتباسات بهذا المثل الذي أورده الشيخ عن مدى سطوة النفس على العقل، فسطوة النفس لا تصنع رأيًا في العقل، وإنما تصنع فيه انقيادًا فقط، فهي تقوده مكرهًا كقيادة الجسد بالسلاسل إلى ما يكره، وهذا لا يُخرج الإنسان عن دائرة التكليف، فإنه وإن كان فاقدًا للقدرة على مقاومة النفس عند الفعل، فإنه مختارٌ للوصل إلى هذه الحال، وهو الذي مكَّن نفسه من عقله بالتدرج، كمن مكّن من عنقه حبلًا يساق به إلى فعل خطأٍ، فهو وإن كان حال الانقياد والسوق عاجزًا عن الانفلات، فإنه أدخل عنقه في الحبل مختارًا، وهو يعلم أين يساق وماذا سيفعل، وهذا مؤاخذٌ بفعله، ومجازى على جرمه.

وتعد الشهوات النفسية من أشد المؤثرات في العقل، ولها سطوةٌ وقوةٌ وسيطرةٌ على العقل، فالنفس إذا اشتهت أسرت العقل، وساقته في تحقيق رغباتها، وتسمى النفس المأسورة بالشهوات بالنفس الفقيرة، والفقر فقر النفس، فإذا افتقرت لم ينتفع الغني بغناه، وإذا اغتنت لم يتضرر الفقير بفقره، لأن غنى النفس يكون بقناعتها بما عندها، وبسياسة العقل لها عند حاجتها إلى غيرها، حتى لا تنكبَّ فتكون أسيرةً ذليلةً لغيرها، وكم من نفسٍ ناقصةٍ كمَّلها عقلٌ راجحٌ بسياسته

لها، وحكمته في وضعها في مواضع تصلح لها، وحمايتها عن ضد ذلك.

والعقل ليس عدوًّا للنفس ولو حرمها، ولكنها عدوةٌ له ولو أمتعته، بل هي عدوةٌ لنفسها ولو استمتعت بأفعالها، والعقول الصحيحة لا تجعل للنفس حرية الاختيار في أزمنة الشهوات وأوقاتها، وليس للعقل أن يغلق عليها منافذ الشهوة في كل حينٍ، بل يجب أن يكون اختياره للوقت موافقًا لرغبتها وميلها، وتقييد العقل للنفس في أزمنة شهواتها هو تكميلٌ للنفوس، وعلامةٌ على قوة العقول ورجاحتها.

وحديث النبي صلى الله عليه وسلم: (لو كان لابن آدم واديان من مالٍ لابتغى واديًا ثالثًا)، جاء دليلًا على نهم النفس وعدم وقوفها عند حدٍّ، وفيه أن النفس تتدرج في غرائزها ولا تنقطع، وذلك تسكينًا للعقل أن يصدها عن شهواتها، والحديث يشير إلى طبيعة التدرج، فتبدأ النفس بوادٍ واحدٍ، فإذا حصلت عليه تشوفت للوادي الثاني، فإذا تمكنت من الواديين ابتغت لها ثالثًا، وهكذا، وليس الأمر مقتصرًا على المال بل يدخل في ذلك كل رغائب النفس.

والنفس تحتاج إلى العقل فيما لا ينتهي إلى حدٍّ من الشهوات، أكثر من حاجتها إلى ما ينتهي لحدٍّ، مع الحاجة للعقل في ضبط منتهى كل شهوةٍ، وكلما كان العقل بصيرًا بالعواقب خبيرًا بها، كان ضبطه لنهم النفس أقوى، وكانت هي في مواجهته أضعف، وكلما كان العقل أقدر

على وضع العواقب أمام النفس لتراها ترهيبًا وترغيبًا، كان أقدر على التأثير فيها، والمطامع والشهوات المعنوية كالشهرة وطلب الذكر تؤثر في النفس وتحرف العقل عن الإنصاف أشد على الإنسان وأخفى من المطامع والشهوات المادية.

والإيمان يضعف النفس ويخفف من سطوتها على العقل، وثمة تلازم بين كمال الإيمان وكمال العقل، لأنه لا يمكن أن يخالف الإيمان العقل الصحيح، ولذا قال الحسن: ما يتم دين الرجل حتى يتم عقله.

وإذا أراد العقل السلامة من عواقب الندامة، فعليه أن يقدِّر لكل أمرٍ قدره من التأمل والتفكر، فليست كل الأمور تستوي في مقدار التفكير، فمنها ما يحتاج إلى تأملٍ طويلٍ بعقلٍ واحدٍ، ومنها ما لا يكتفي فيها بعقلٍ واحدٍ، وإنما تحتاج إلى تشاورٍ مع عقولٍ راجحةٍ أخرى.

ومن سياسة النفس عدم إدامة النظر والتفكر في محاسن أناسٍ ضالين لا علاقة لمحاسنهم بضلالهم، فالنفس لا تتوازن وتخلط، فقد يكون الرجل كامل الحسن والجمال غنيَّ المال، ولكنه ضال المعتقد والفكر، فالنظر إلى محاسنه يحسِّن في النفس معتقده وفكره، ولا تلازم بينهما، وهذا من واجب العقل في سياسة النفس وضبطها، وأكثر الناس في هذا الموضع تنساق بلا تميزٍ بين ما تحبه النفس من متعةٍ، وبين ما

يريده العقل من أدلةٍ، ولأجل هذا يحاكي الفقراء الأغنياء، والضعفاء الأقوياء، وينقادون لتقليدهم في المعتقد والفكر، والتصرف والحال.

وبين العقل والنفس من الصراع والمدافعة الدائمة التي لا يمكن أن تنفك في ساعةٍ من الساعات، وربما لحظةٍ من اللحظات، فالعقل لديه علمٌ وقناعةٌ، والنفس لديها طبعٌ وميلٌ وشهوةٌ، ويتجاذبان في كل موقفٍ، وربما في الموقف الواحد مراتٍ عديدة، النفس تريد تحقيق مالها، والعقل يريد أن يسير بما يعلم ويقنعُ، والسعيد من استطاع أن يقود هذا التدافع إلى ما فيه صلاحه وتكامل سموه.

الإيمان والعقل... الإيمان ضابطٌ ومحركٌ والعقل دليلٌ

وجود العقل شرطٌ لصحة الإيمان بالوحي، وشرطٌ لصحة تكاليف الإسلام «فإذا أخذ الله ما وهب (أي العقل) سقط ما أوجب (أي التكاليف)»؛ فالعقل هو محل خطاب الوحي، والعقل هو دليل الوحي؛ واعتماد البرهان والدليل هو عمل العقل، وهو دليل الإيمان وسبيله ، وإذا غاب العقل غاب فهم الإيمان، فهما مرتبطان مع بعضهما، فإذا حضر أحدهما كان الأصل أن يحضر الآخر، وإذا غاب أحدهما ترتب على ذلك - في الغالب- غياب الآخر.

والعقل منحةٌ إلهيةٌ أعطيها الإنسان ليتأمل بها في الكون

والنفس، وفي الحياة والأحياء، وليفرق بنورها بين الحقائق والأباطيل وبين الثوابت والأوهام، حتى يصل من خلال نظراته وتأملاته إلى الإيمان الواثق بوجود الله، المبدع للكون، الخالق للأشياء.

كما أن الإيمان بالله ليس غريزةً فطريةً فحسب، كما يؤكد على ذلك الدكتور (يوسف القرضاوي)، بل هو ضرورةٌ عقليةٌ كذلك، وبدون هذا الإيمان سيظل هذا السؤال الذي أثاره القرآن الكريم قلقًا حائرًا بغير جواب: سمح أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ٣٥ أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ٣٦ سجى [الطور: 35-36]

والعقل مناط الوعي والرشد والبصر والتمييز والإدراك، ومن ثم يرتبط الإيمان بالعقل في العقيدة الإسلامية ارتباطًا وثيقًا، فكتاب الإسلام يتجه إلى العقل في تأييد الدين وترسيخ الإيمان، والله يبين الآيات لقوم يعقلون، ويؤمنون، ويضرب الأمثال لقوم يتفكرون ويبصرون ويفقهون ويوقنون، ويسوق العبرة لأولي الألباب، والعالمين لأنهم المرجوون للنظر في آيات القدرة الإلهية وتدبر النظام الكوني المحكم، والإيمان بأنه لم يوجد عبثًا، ولا يمكن أن يسير بتلقائيةٍ عشواء.

وإذا كان الإيمان هو المهمة الكبرى للعباد، فالعقل هو السبيل إلى أداء تلك المهمة، كما أنه السبيل إلى كل نهوضٍ وتقدمٍ، والقرآن الكريم يقدم للإنسان الباحث عن الحق والحقيقة بإخلاصٍ الحكمة من كل

ذلك مقنعةً للعقل وموافقةً للمنطق ومُرضيةً للنفس، في بيانٍ واضحٍ منيرٍ يورث في النفس الاطمئنان، ويثبت في القلب الإيمان بالله -عز وجل- وبحكمته وعدالته المطلقة، ومن ثم يغرس فيه نور اليقين، فالإيمان ضابطٌ ومحركٌ والعقل دليلٌ.

والكون المحيط هو المعجزة الحقيقية التي تنتظر القراءة، وعندما يلتقي العقل الذكي بالكون المعجز ويتحاوران، ينتج الإيمان الحقيقي الذي يطلبه القرآن، فآيات الله ظاهرةٌ مبيَّنةٌ، تنتظر القراءة الصحيحة لمن يريدون الحق والاعتراف به، وفق تعبير (جاسم سلطان)، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ (آل عمران: 191).

وقد لاحظ الدكتور (أحمد الدغشي) ملحظًا فطريًّا على مقولة الأعرابي المشهورة التي تقول: (البعرة تدل على البعير....)، ففطرة الأعرابي هدته إلى الله، في حين إن عقله تفاعل مع ذلك، فتولد عنهما حقيقة الإيمان، وما كان للفطرة أن تعمل خارج العقل المدرك، تمامًا كما لا يمكن للعقل أن يقوم بوظائفه هنا خارج حركة الفطرة.

وإذا كان (اللبُّ) في اللغة هو خالص كل شيءٍ، فيمكننا القول إنه في القرآن ذروة التفكير، ومناط الحكمة، وأساس التمييز، وينبوع الإيمان

والعلـــم واليقين.

هـو عقـلٌ متميـزٌ إذن، وليـس عقـلًا عاديًّـا، بـل هـو عقـل الصفـوة مـن النـاس، والنخبـة مـن المفكريـن، والذيـن وُهبـوا الحكمـة، والعقـل في القـرآن هـو أسـمى مـا في الإنسـان، لأنـه هـو الـذي يميـزه عـن الحيـوان، وهـو الـذي يصلـه بالكـون وخالـق الكـون، فهـو حقيقـة النـور الـذي يكشـف لـه أسرار المعرفـة، ليؤمـن إيمانًـا يقينيًّـا مـدركًا واعيًـا، وفـق تعبـير الدكتـور (محمـد عـلي الجـوزو).

ولـو تأملنـا قولـه تعـالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ (الملـك: 10)، لوجدنـا أن القـرآن ربـط السـمع هنـا بفعـلٍ دل عـلى أن سـماع دعـوة الإيـمان يقتـضي فهـم هـذه الدعـوة، فـإذا كان هنـاك سـمعٌ مـن غـير تعقـلٍ فإنـه لا قيمـة لـه، فقيمـة عمـل الحـواس هـو قيمـة ارتباطهـا بالعقـل.

إنّ مـا جـاء في مواضـع كثـيرة مـن القـرآن الكريـم مـن حـثٍّ متكـررٍ عـلى التفكـر والنظـر وإعـمال العقـل، لا يمكـن تفسـيره إلا بأنـه إيـمانٌ راسـخٌ (وعهـدٌ) بـأن شـهادة الحـواس والعقـل لـن تنقـض إيـمان الـروح، كـما وصفهـا المفكـر (عـلي عـزت بيجوفيتـش)، ومـن ثـم، وعنـد نقطـةٍ مـا، عنـد أفـقٍ مـا، لـن يكـون هنـاك صراعٌ بـين العلـم القائـم عـلى الملاحظـة والديـن القائـم عـلى الوحـي، بـل ويمكـن لـكلٍّ منهـما أن يعـزز الآخـر، هـذا الأفـق

هو ما يسميه (بيجوفيتش) أفق الإسلام، وقد ألّف فيه كتابًا يعد من الكتب ذات القيمة الفكرية والعلمية العالية، وهو كتاب (الإسلام بين الشرق والغرب)، وهو من الكتب التي تستحق القراءة أكثر من مرة.

العقل والعلم... لا تنفذون إلا بسلطان.

نحط رحالنا عند آخر مقالٍ حول إعمال العقل، بعد أن طوّفنا بكم -أعزائي القراء- خلال شهر رمضان، من خلال مقالاتٍ ركّزت على الأهمية والمكانة التي يحتلها العقل في التصور الإسلامي، وفي حياة الإنسان فردًا وجماعةً، وأن هذه النعمة التي امتن الله بها على الإنسان هي الفيصل الواضح بينه وبين الأنعام التي مُنحت الغريزة بدلًا عن العقل كي تسيِّر حياتها، هذه النعمة الربانية التي تعطي للإنسان إنسانيته المميزة، تحتاج منا إلى مزيد عنايةٍ ورعايةٍ، كما تحتاج منا -أيضًا- إلى مزيد إعمالٍ وتوظيفٍ، فما خلقت هذه النعمة إلا لهذه الغاية، ويعد تعطيلها وإهمالها كفرٌ بها، وهو من باب كفران النعمة، تلك النعمة التي أمرنا الله -سبحانه وتعالى- بأن نتحدث بها ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (الضحى: 11)، ووعدنا عند التحدث بهذه النعمة والشكر عليها بالزيادة، قال تعالى: ﴿تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ (الرعد: 7).

وقد خلق الله كل عضوٍ ومَلكَةٍ في الإنسان لهدفٍ وغايةٍ محددةٍ،

فالعين للإبصار، والأذن للسماع، واللسان للكلام والتذوق، واليد للأخذ والعطاء، والقدم للمشي، والجلد للإحساس، والعقل والقلب للتفكير والتأمل والخشوع، وهكذا الحال مع البقية، وأي تعطيلٍ لواحدةٍ من هذه الأعضاء أو المَلَكات أو استخدامها في غير غايتها وهدفها الذي خلقت من أجله يعد كفرًا بها، وسيحاسب الإنسان على تعطيلها وإهمالها حسابًا عسيرًا، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾(الإسراء: 36).

والعقل، تلك الهِبة والمنحة الربانية التي تعد في مقدمة هذه الأعضاء والمَلَكات، بل هي الملكة التي تؤنسن بقية الأعضاء والمَلَكات، أي تجعل منها سيمفونيةً إنسانيةً راقيةً، ذات إيقاعٍ متناغمٍ، فالعقل (في مفهومه الواسع، الذي قد يكون القلب أحد أسمائه، أو قد يكون هو أحد أسماء القلب) قائد هذه الأعضاء والملكات إجمالًا، وهو مقُودٌ من منهج الله العظيم، في التصور الإسلامي، قال تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ (يوسف: 76)، هذا العقل إذا عُطِّل، تعطلت بقية الأعضاء والملكات عن أداء دورها الريادي المرسوم، فهي تقوى بقوته وتضعف بضعفه وتتعطل بتعطله، حتى وإن رأينا هذه الأعضاء تعمل عملها الحيواني، فالعين تبصر والأذن تسمع....إلخ ، فإنما هو بصرٌ وسماعٌ ....إلخ حيوانيٌّ، ولا يمكن أن يرقى لمستوى السماع والبصر

الإنساني، ولذلك تحدث الله عن الكفار يقوم القيامة بأنهم سيقولون، كما قال الله سبحانه:﴿ وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾[الملك:10] ، فهم في الحقيقة سمعوا وأبصروا، ولكنه سماع الحيوان، ولهذا ترتب على مثل هذا السماع أنهم لم يعقلوا، بل إن الله قد أثبت للكفار به بعض الحواس ولكنها أقرب إلى الحاسة الحيوانية منها إلى الإنسانية، فقال جلّ من قائل:﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ (الأعراف:179)، فهم غافلون عن وظيفة هذه الحواس والملكات، ولهذا لم يعرفوا قيمتها حق المعرفة، فعطلوها وأهملوها ولم يُعْمِلوها ويوظفوها، فاستحقوا مرتبةً أدنى من الحيوانات، التي أعطاها الله الغريزة، فأحسنت توظيفها وانتفعت بها، في حين تنكّر الإنسان لما منحه الله من نعمٍ، فاستحق أن يكون مما يُذرأ لجهنم والعياذ بالله.

إن القرآن الكريم يدعم إعمال العقل بكثيرٍ من الألفاظ الأخرى: السمع والبصر والقلب والفؤاد والتفكر والتدبر والتأمل والفهم والعلم والحكمة والذكر... وكلها مصطلحاتٌ قرآنيةٌ تتعاضد وتتنوع صيغها مؤكدةً ألّا سبيل إلى فلاح الإنسان إلا بإعمال العقل، قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ (الملك: 10)،

كأني بالقرآن يجعل إعمال العقل سببًا أساسيًّا في نعيم الإنسان وفلاحه، ويجعل السعير والهلاك نتيجةً حتميةً لتعطيله (سمح قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَاسجى (الشمس: 9-10).

وإذا صحَّ أنْ نتكلم عن مكوِّنات الإنسان من جسمٍ وعقلٍ وروحٍ (والكلام هنا للدكتور فتحي ملكاوي)، فإنَّ من المؤكَّد أنَّ كل مكوِّنٍ من هذه المكونات يحتاج إلى عنايةٍ تناسبه من وسائل التنمية والتربية والتزكية؛ فللجسم تربيةٌ ولها وسائلها، وللعقل تربيةٌ ولها وسائلها، وللروح تربيةٌ ولها وسائلها. وخاصية التكامُل في الفكر التربوي هي أن ينال كل مكوِّنٍ من مكوِّنات الإنسان القدر اللازم له من التربية والتنمية والتزكية، وبالوسائل التي تناسبه، وحتى حين يقوم المتخصِّص في التربية الجسمية -مثلاً- بعمله في هذه التربية لشخصٍ معينٍ، فإنَّ عليه أنْ يكون واعيًا بأنَّ ذلك الشخص يحتاج إلى التربية العقلية، والتربية الروحية، فينتبه وينبِّه إلى ذلك، ويفسح المجال لما يَلزمهما، وربما يحتاج المتخصِّصون في جوانب التربية إلى أنْ يتعاونوا معًا في البحث عن طرق استكمال هذه الجوانب، بحيث يدعم جهد أيٍّ منهم جهود الآخرين، فهذه المكوِّنات يرتبط أحدها بالآخر، ويؤثِّر فيه، ولكنَّ أيَ مكوِّنٍ منها لا يغني عن غيره.

والفكر التربوي الإسلامي يتعامل مع الإنسان كما هو في

مكوِّناته المادية والعقلية والروحية، التي تحتاج كلٌّ منها إلى عنايةٍ ورعايةٍ خاصةٍ؛ وفي مشاعره وانفعالاته النفسية ومتطلَّباته، ولا يتعامل معه على أساسٍ يفتقد فيه جزءًا من طبيعته وتكوينه، كما هو في الواقع، وإذا كانت هذه التربية ترفض أنْ تكتفي بتدريب بدنه وعقله لأغراض أداء وظائفه في الدنيا، فإنَّها ترفض كذلك أنْ تكتفي بالنظر إليه بوصفه كائنًا روحيًّا تثبت حالته على درجةٍ من المراقبة الدائمة والصفاء الكامل.

إن الإنسان الفرد وحدةٌ متكاملةٌ، وقواه المختلفة موحدة الاتجاه، فهو ليس جسمًا مستقلًا بذاته عن الروح والعقل، وليس عقلًا منفصلًا لا علاقة له بالجسم والروح، وليس روحًا هائمةً بلا رابطٍ من عقلٍ وجسمٍ، بل هو كيانٌ واحدٌ متكامل الأجزاء.

وإن التربية العقلية، المتمثلة في (إعمال العقل وتوظيفه والتحدث بنعمة الله فيه أو من خلاله)، وكذا التربية الروحية، تشبه إلى حدٍّ بعيدٍ التربية الرياضية، التي لا تتأتى إلا عن طريق ممارسة الألعاب الرياضية، ومثلها التربية العقلية التي لا تتأتى إلا عن طريق المران العقلي، وقريبًا منها التربية الروحية التي لا يمكن تهذيبها إلا عن طريق الترويض الروحي. بمعنى آخر، يعد إعمال الحاسة أو المَلَكة سر بقائها وحياتها وقوتها واستمرار عطائها، وإن إهمالها وعدم تمرينها بصورةٍ مستمرةٍ يضعفها وربما يعطلها، فتصبح مشلولةً أو عاجزةً تمامًا، وكم من

أناسٍ عطلوا ما وهبهم الله إياه، وصاروا لا يختلفون عن الحيوان إلا في كونهم يمشون على قدمين بدلًا من أربعٍ، وفي هذا امتهانٌ لهم، وسابق عذابٍ أصيبوا به جرّاء نكرانهم لنعم الله وعدم التحدث بها وإعمالها وتوظيفها، وما ينتظرهم من جزاءٍ في الأخرة أشد وأنكى.

إن القرابة الروحية والعقلية هي الرباط الوحيد بين محمد صلى الله عليه وسلم ومن يمتون إلى أمته بصلةٍ، كما يؤكد على ذلك الشيخ (محمد الغزالي) فأنى (للأرواح) المريضة و(العقول) الكليلة أن تتصل بمن جاء ليودع في الأرواح والعقول عافية الدنيا والآخرة؟ وأظنكم تدركون ما يرمي إليه الشيخ الغزالي من مكانةٍ لملكة العقل، التي تصل الإنسان بنبي الرحمة الذي جاء بقرآنٍ يخاطب العقل ويستثير قواه.

إن النظر في كون الله، وفي حركة التاريخ، وتأمل أسماء الله - جل وعلا- وصفاته (إعمال العقل وتوظيفه والتحدث بنعمة الله فيه)، يرسل إلى القلب والعقل والروح في وقتٍ واحدٍ رسائل تمتلئ بالصفاء والوضوح والجمال... رسائل لا تملك أمامها الفطرة المغروسة في نفس الإنسان إلا أن تستجيب لها وتشتاق إليها لولا ما قد يغلف القلب من جهلٍ وفسادٍ.

إننا أمام سلطان العقل والروح والعلم، سلطان الإنسانية

وقائدها، ذلك السلطان الذي قال عنه (أبو عبد الله النفري الرندي): «أبسلطان العلم: ملاحظةً واستقراءً، أم بسلطان العقل: بحثًا واستنتاجًا، أم بسلطان الروح: إشراقًا وإلهامًا»، إنه الملك والسلطان الذي لا يخاف عليه سرقةً أو انقلابًا، إنه سلطان ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴾ ، وسلطان ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ ، وسلطان ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ ، وسلطان ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾ ، وسلطان ﴿وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾، إنه سلطان العلم والعقل يا سادة، وهناك تلازمٌ واضحٌ بين العلم والعقل، بحيث إنه إذا وجد أحدهما وجد الآخر غالبًا، بحيث يكون في مستواه قوةً وضعفًا، أما غياب أحدهما فيعني غياب الآخر، وخاصةً في حال غياب العقل، رغم أنف من قالوا: (خذوا الحكمة من أفواه المجانين).

إن من يملكون العقل والعلم هم بالفعل سلاطين الدنيا، وبأيديهم كذلك - إذا استندوا إلى المنهج الرباني- سلطان الآخرة، فالدنيا لا تتسخر إلا لأهل العلم العقلاء، والجنة لا مكان فيها للحمقى والمغفلين والجاحدين لنعم الله، الرافضين للتحدث بها وتوظيفها وإعمالها، فالله -سبحانه وتعالى- يخاطب الجن والإنس ويوضح لهم أن النفاذ من أقطار السموات والأرض لن يكون إلا بسلطانٍ، والسلطان هنا - كما قال بعض العلماء- هو سلطان العلم المرتبط حتمًا بالعقل، فيقول جلّ

مـــن قائـــل: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ﴾ (الرحمـــن: 33).

التعريف بالمؤلف

■ البيانات الشخصية:

الدكتور: يحيى أحمد حسين المرهبي. أستاذ أصول التربية المساعد، كلية التربية والعلوم التطبيقية - جامعة عمران. محل وتاريخ الميلاد: حجة 5/2 /1973م. محل الإقامة: الجمهورية اليمنية / محافظة عمران - مدينة عمران - حارة النهضة السكنية ــ شارع 22مايو. رقم الموبايل: 00967774155602 بريد إلكتروني almerhbi2010@gmail.com

■ المؤهلات العلمية:

- (2016) دكتوراة - فلسفة التربية- قسم أصول التربية - سياسات تربوية / جامعة الدكتور بابا صاحب امبيدكار/ مهاراشترا / اورنق أباد / جمهورية الهند.
- (2008) ماجستير أصول تربية - جامعة صنعاء - كلية التربية. بتقدير عام: جيد جدا - ً 82,5 %
- (2004) تمهيدي ماجستير أصول تربية - جامعة صنعاء - كلية التربية بتقدير عام جيد جدا 82,66%.
- (98/99) بكالوريوس تربية - كلية التربية عمران - جامعة صنعاء بتقدير عام جيد .

■ الإنتاج العلمي:

- رسالة الدكتوراه بعنوان : (دراسة واقع تربية المواطنة في المدارس الثانوية في العاصمة صنعاء).
- رسالة الماجستير بعنوان : (العوامل المؤثرة على قيم المواطنة لدى طلبة المرحلة الثانوية بمحافظة عمران).
- لديه ثلاثة أبحاث منشورة باللغة الإنجليزية في مجلات محكمة في جمهورية الهند.

o عنوان البحث الأول: (مسؤولية المؤسسات الاجتماعية في بناء قيم المواطنة لدى طالبها(2013)م.

o عنـــوان البحـــث الثانـــي: دور الأسرة والمدرســـة في تطويـر قيـم المواطنـة لـدى أبنائهـا التلاميذ(2016)م.

o عنـــوان البحـــث الثالـــث: آليـــات تفعيـــل قيـــم المواطنـــة لـــدى طلبـــة المرحلـــة الثانويـــة فـــي الجمهوريـــة اليمنيـــة (2016)م.

- لديه بحثان منشوران في مؤتمرين علميين في اليمن ، هما:

o دور الفـــروض الكفائيـــة فـــي تحقيـــق التنميـــة المســـتدامة، المؤتمـــر العلمـــي الثانـــي لجامعـــة الأندلس تحـــت عنـــوان (التنميـــة المســـتدامة ركيـــزة للأمن والاستقرار والسلام)، صنعـــاء، أكتوبـــر 2020م.

o الـــدور المأمـــول مـــن الجامعـــات اليمنيـــة فـــي خدمـــة المجتمـــع المحلـــي فـــي ضـــوء الوظيفـــة الثالثـــة للجامعـــات، المؤتمـــر الثاني لجامعة البيضاء، الجمهوريـــة اليمنيـــة، أغسـطس 2021م.

- لديه أبحاث وكتب لم تنشر ورقيا ونشرت إلكترونيا هي:

1. كتاب بعنوان: (اطمئنان قلب) منشور 2020م
1. بحـــث بعنـــوان: (دور الفـــروض الكفائيـــة فـــي تحقيـــق التنميـــة المســـتدامة) منشـــور 2020م.
3. كتـــاب بعنـــوان: (ثقافـــة البنـــاء . أفـــكار ورؤى مؤسســـة ودافعـــة للبنـــاء) منشـــور 2020م.
4. كتـــاب بعنـــوان: (علـــى بصيـــرة . تأملات فـــي الديـــن والحيـــاة). منشـــور 2019م.
5. كتـــاب بعنـــوان: (قد أفلـح مـن زكاهـا). منشـور 2019م. ونشـر ورقيـا عـن طريـق دار المشـرق الدوليـة للكتـاب - ماليزيا.
6. كتاب بعنوان : (مرايا الذات . بحث عن الحقيقة) ، منشور .2021 م.
7. كتاب بعنوان : (حياة الروح)، منشور 2022م.

ملاحظة:

رسـالة الماجسـتير والدكتـوراة، إضافـة إلـى الكتـب السـابقة مرفوعـة علـى موقـع مكتبـة نـور وغيرهـا علـى شـبكة الإنترنت، ومسـموح بتنزيلهـا مـن هنـاك. . كمـا أن لديـه بعـض المشـاريع لكتـب ودراسـات وأبحـاث لـم يسـتكمل إنجازهـا وتحتـاج إلـى وقـت.